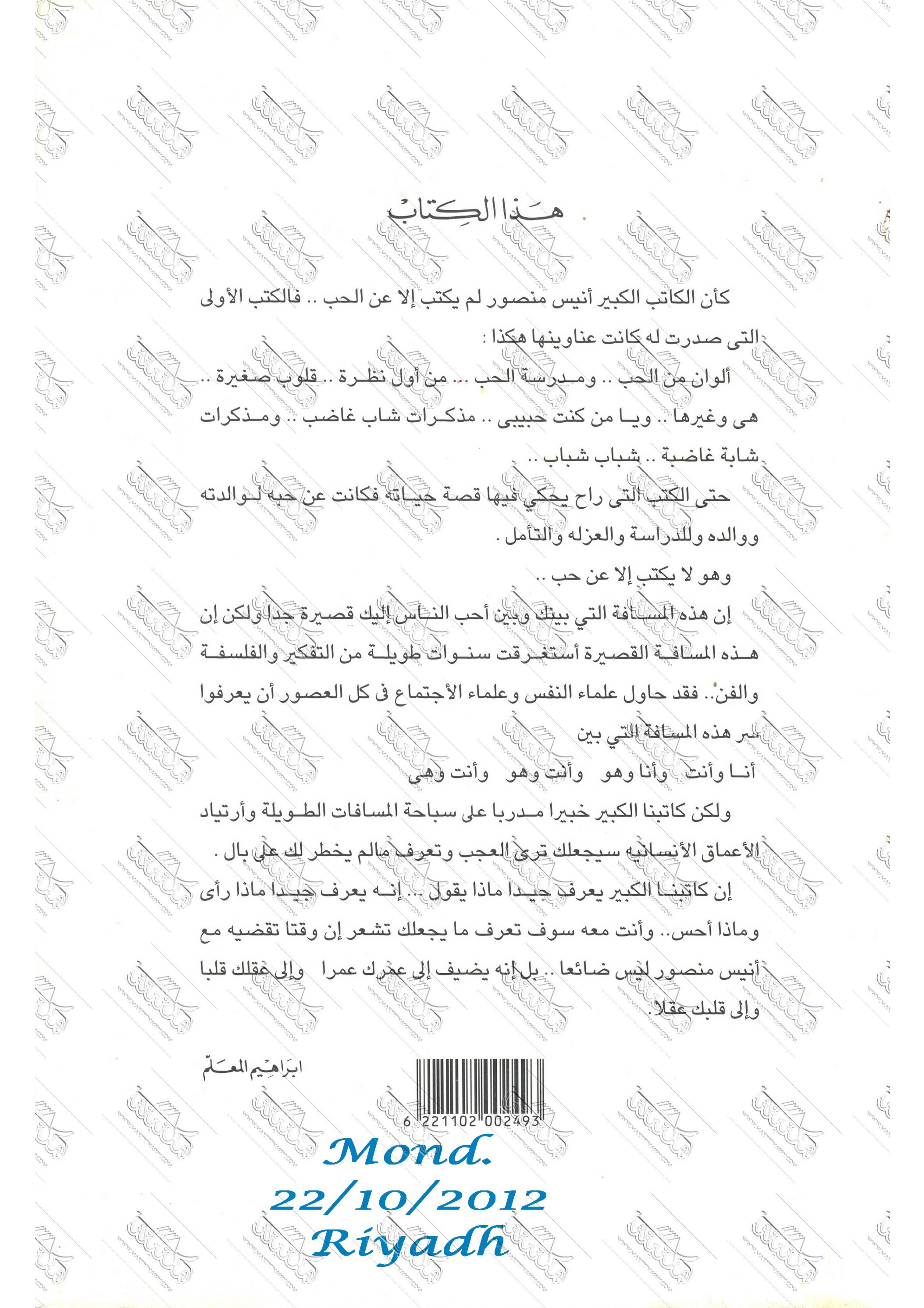

283
أنيس منصور
الحب الذى بيننا
http://www.maktbtna2211.com/
Ahmed Mady
دار الشروق



هذا الكتاب

كأن الكاتب الكبير أنيس منصور لم يكتب إلا عن الحب .. فالكتب الأولى التى صدرت له كانت عناوينها هكذا :

ألوان من الحب .. ومدرسة الحب .. من أول نظرة .. قلوب صغيرة .. هى وغيرها .. ويا من كنت حبيبى .. مذكرات شاب غاضب .. ومذكرات شابة غاضبة .. شباب شباب ..

حتى الكتب التى راح يحكي فيها قصة حياته فكانت عن حبه لوالدته ووالده وللدراسة والعزله والتأمل .

وهو لا يكتب إلا عن حب ..

إن هذه المسافة التي بينك وبين أحب الناس إليك قصيرة جدا ولكن إن هذه المسافة القصيرة أستغرقت سنوات طويلة من التفكير والفلسفة والفن.. فقد حاول علماء النفس وعلماء الأجتماع فى كل العصور أن يعرفوا سر هذه المسافة التي بين

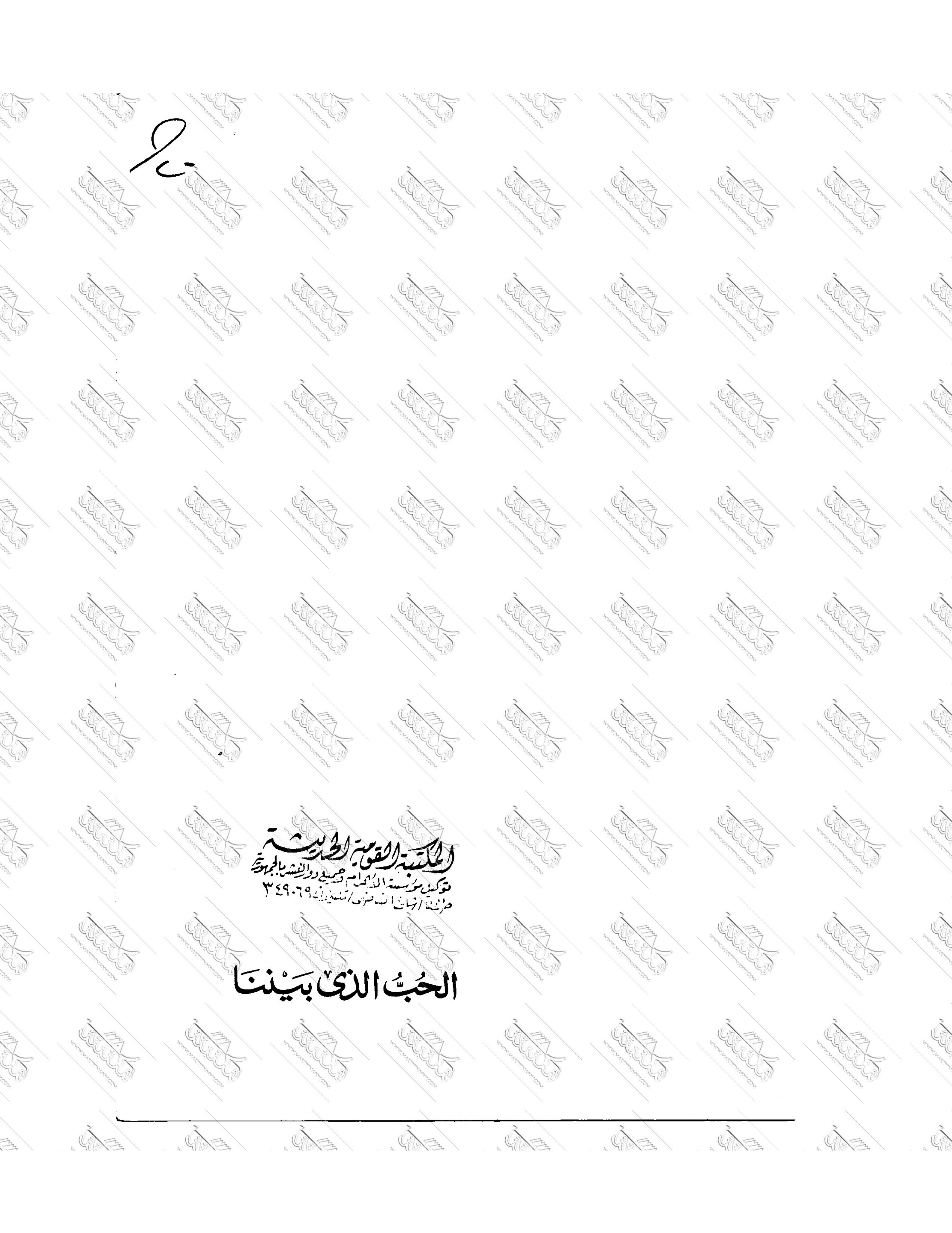
أنا وأنت   وأنا وهو   وأنت وهو   وأنت وهى

ولكن كاتبنا الكبير خبيرا مدربا على سباحة المسافات الطويلة وأرتياد الأعماق الأنسانيه سيجعلك ترى العجب وتعرف مالم يخطر لك على بال .

إن كاتبنا الكبير يعرف جيدا ماذا يقول .. إنه يعرف جيدا ماذا رأى وماذا أحس.. وأنت معه سوف تعرف ما يجعلك تشعر إن وقتا تقضيه مع أنيس منصور ليس ضائعا .. بل إنه يضيف إلى عمرك عمرا   وإلى عقلك قلبا وإلى قلبك عقلا .

ابراهيم المعلم

6 221102 002493



الحبُّ الذى بيننا



الطبعـــة الأولـــى
١٤١٢هـ-١٩٩٢م
الطبعـــة الثـانيـة
١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com



أنيس منصور

الحُبُّ الذى بيْننا

دار الشروق

الشاب يفضلها : محجبة !
والشابة تفضله : سي السيد !

في الريف كانت أم العريس تحتضن العروس لتتأكد أن كان نهداها حقيقيين وليسا مشدودين بسوتيان . . وتشد شعرها لتعرف إن كان باروكة . . وتعطيها عوداً من القصب لتتأكد من سلامة أسنانها . . ثم تدفع تحت قدميها إبرة لكي تتأكد من قدرتها على العثور عليها ولضم الخيط ـ إذن فالعروس المثالية هي التي تطيع حماتها والتي هي صحيحة الجسم متناسبة الأطراف نظرها ستة على ستة ونهداها بارزان وشعرها حقيقي . . فإذا وجدت الحماة كل هذه المواصفات باركت العروس التي سوف تكون كالخاتم في أصبعها . وتكون لها الكلمة العليا ، كلمتها أعلى من كلمة إبنها في البيت !

وتغيرت المواصفات . ولم يعد للحماة رأي في زواج إبنها وربما فضل العريس أن تكون عروسه مخالفة تماماً لكل صفات الأم . . وبذلك تقف إلى جواره ضد طغيان الأم التي لا تريد لدورها كأم أن ينتهي ! وكما تغيرت الصفات التي تعجب الرجل في المرأة وتعجب المرأة في الرجل ، تغيرت أيضاً القيم الأخلاقية ، والوظائف الإجتماعية . . فالرجال أصبحوا يفضلون

المرأة التي تتعلم وتعمل . والمرأة تريد أن تكسر القفص التقليدي بأن تكون زوجة تخرج وتدخل بموافقة الزوج وفي حمايته ، لا في رفقة الأب والأم والأخ ـ فمهما كان الأخ صغيراً فهو الذي يحمي أخته مهما كانت كبيرة ومتعلمة . . فالتقاليد هي ألا تخرج البنت وحدها . ولا بد من حارس يمشي إلى جوارها أو يتعلق بفستانها ـ أهوه رجل والسلام !

* * *

وأجمل جميلات العصر الفرعوني ثلاث : أم الملك أختاتون وأسمهـا الملكـة تي .

وزوجته الملكة نفرتيتي . .

ثم الملكة حتشبسوت . .

أما الملكة تي فهي مستديرة الوجه عيناها لوزتان ووجنتاها بارزتان . . وشفتاها دقيقتان والشفة العليا مرفوعة وأنفها دقيق أشم . . وفيها كبرياء . .

والملكـة نفرتيتي أجمـل مـا فيهـا عنقهـا الـدقيق وعينـاهـا الـواسعتان وفمهـا المثير وشفتـاها . . . أمـا أنفها فهـو أفطس ووجنتاها ناتئتان . .

أما الملكة حتشبسوت فلها إبتسامة جميلة أجمل من إبتسامة الموناليزا التاريخية ولها شفتان دقيقتان وعينان واسعتان ، الوجنتان قويتان أيضاً . .

ولكن هذه الصفات ليست هي التي تعجب أبنـاء القرن العشرين . .

ولم نجد في كل العصور الفرعونية إمرأة ذات نهدين بارزين إلا بعض الفلاحات اللاتي يعملن في عصر العنب أو عمل الخبز . . أما الملكات والنبيلات فالنهود صغيرة مستديرة تبرز في حياء تحت الملابس الشفافة . . بينما وجدنا في القرن العشرين ملكات الجمال هن ربات النهود البارزة : مثل جين رسل ومارلين مونرو وسيلفانا مانجانو واليزابيث تايلور .

ثم إنعكست القيم الجمالية فاتجهت العيون والقلوب إلى ملكة الإثارة الفرنسية بريجيت باردو التي هي الجنس الثالث : فلا هي طفلة صغيرة ولا هي إمرأة كاملة الأنوثة . . إنها تشبه توت ـ عنخ ـ آمون بين الرجال ـ فلا هو طفل ولا هو شاب . . وإنما هو الشاب الطفل كما أن بريجيت باردو هي الأنثى الطفل . .

وعندما تعلق العالم كله بالممثل الأمريكي جيمس دين الصغير الوحيد المسكين إتجهنا أيضاً إلى عبد الحليم حافظ الوحيد المسكين المريض الحزين . .

وكان معنى ذلك أن الرجال يفضلون الولد الغلبان . . وأن المرأة تفضل أن تكون أماً لهذا الولد .

فالرجل يفضل المرأة الأم . .

والمرأة تفضل الرجل الإبن . .

وظل هذا «الذوق» عشرات السنين . . .

وفي مدينة شتوتجارت بألمانيا الغربية تمثال من صنع الفنان البريطاني العالمي هنري مور . التمثال لإمرأة مالت على

جنبها . . وقد إختاروا له مكاناً شاسعاً في قلب المدينة . . وهو تحفة فنية لأعظم من نحت الحجر في العصر الحديث . . فالرجل الألماني يحب النظام والإنضباط ويحب التناسق . . والتمثال لواحدة لا هي جالسة ولا هي واقفة . . ثم أنها ضخمة الصدر والمؤخرة نحيفة الذراعين والساقين . . فلا تناسق بين أعضائها .

أن وجودها في ألمانيا نوع من الإعتراض . . أو نوع من الإحتجاج على العقلية الهندسية الألمانية والذوق الفني السليم . . ولذلك قابل الألمان هذا الإعتراض بالتجاهل التام له . . فليس بين التمثال وبين الألمان أي نوع من أنواع الحوار . . فالتمثال نموذج لقيم جمالية وأخلاقية وإجتماعية لا وجود لها في ألمانيا . . فكان التمثال يرفض ألمانيا ، والألمان يرفضونه أيضاً . . والتمثال هناك وكأنه ليس هناك . . والتمثال لا يعبأ بالذوق العام في البلد الذي إستضافه والبلد لا يعبأ بهذا الضيف الذي فرض «الجليطة» على الذوق السليم في ألمانيا .

والألمان يحبون مثل هذه الجمل الإعتراضية التي تؤكد ذوقهم العام عندما تعترض عليه . .

وفي مدينة تبنجن بألمانيا أيضاً يوجد تمثال للشاعر الغنائي «أولاند» في «حديقة التأوهات» على نهر السالزاخ . . فالتمثال لشاعر كان يسخر من غراميات الطلبة الذين ينصرفون عن الدراسة ويغرقون أنفسهم في الحب والخيال والهلوسة . . فلما مات الشاعر قرر الطلبة أن يسجلوا سخريتهم منه وأن يجعلوه عبرة لكل الشعراء والفنانين . . فصنعوا له تمثالاً أضحوكة فنية . .

وذلك بأن خالفوا جميع قواعد الفن في صناعة التماثيل . . فالتمثال ليس متناسب الأطراف : فالرأس كبير والجسم صغير . . والعينان كل واحدة لها طول وعرض وكذلك الأذنان والشفتان والأنف واليدان . . كلها في حالة خصام . . وكأنها ليست لجسم واحد . . وإنما هي أطراف اقتطعوها من أجسام مختلفة وكوموها في هذه القطعة من الصخر . . وكأنهم يريدون أن يقولوا : بهذا الشكل لا يصح أن يكون تمثالاً . . وبهذا الشكل يجب أن يكون رد الإهانة . . وإذا كانت أغنيات الشاعر وسخرياته بالحب قد تبددت ، فإن الإعتراض عليها قائم راسخ كالجرانيت !

* * *

والزواج هو أقدم العلاقات بين رجل وإمرأة والهدف من الزواج هو تنظيم العلاقة الجنسية وحماية الأطفال .

وكانت العلاقات الجنسية شيوعية : كل الرجال لكل النساء . . ثم بعض الرجال لكثير من النساء . . ثم رجل واحد لإمرأة واحدة . .

والحروب هي صاحبة الفضل الأول على تغيير العلاقات بين الرجل والمرأة والحروب الشاملة حديثة جداً . فالحرب العالمية الأولى أودت بحياة عشرين مليون رجل وتركت وراءها مثل هذا العدد من النساء يزرعن الأرض ويدرن المصانع . فلما عاد الرجل والمرأة . . والحروب الشاملة حديثة جداً. فالحرب العالمية وكان لا بد من مكافأة المرأة على ذلك . فكانت لها المساواة ـ بعض المساواة في العلم والعمل . .

فالمرأة الإنجليزية في عشرينات هذا القرن أصبح من حقها أن تدلي بصوتها في الإنتخابات وأن تكون عضواً في البرلمان وفي الوزارة والإدارة - بينما المرأة السويسرية لم تحصل على هذا الحق حتى الآن !

وجاءت الحرب العالمية الثانية فأكلت خمسين مليون رجل . . ثم أعطت للمرأة ما تبقى لها من الحريات . لقد تحررت المرأة الأمريكية والأوروبية من كل قيود الرجل .

إذن لقد تحررت المرأة وإنطلقت . ولم يعد هناك خلاف بين أحد على أنه من الضروري أن تتعلم المرأة ما تريد وأن تحب من تشاء وأن تتزوج على مزاجها . . وليس من الضروري أن تقوم الأم باختبار العروس لمعرفة إن كان لها نهدان وردفان وأسنانها أبانوس وشعرها حريراً وعيناها بلا عدسات لاصقة فليست هي التي سوف تتزوجها . . حتى لو كانت الأم والأب هما اللذان ينفقان على العريس . . فالإنفاق عليه مؤقت حتى يجد عملاً . وإلا فلماذا أنجبا هذا العريس ؟

إن كان وجوده غلطة فهي غلطتهما . وإن لم يجد العريس عملاً فور تخرجه ، فلا ذنب له . . إنها مصيبة المجتمع الذي إختلت فيه الموازين والمكاييل .

ولأن المرأة لا تزال حديثة العهد بالحرية فهي تتصرف مثل أغنياء الحرب - أي الأغنياء الذين خلقتهم الحرب . . فالمرأة هي الغنية التي خلقتها الحرب أيضاً . . فهي تبالغ كثيراً في كل الذي اكتسبته . فهي تحرص على عملها مهما كلفها هذا العمل من تعب وعذاب في الجري وراء الأتوبيس ومزاحمة الرجال في المحطات ومواجهة إهانات ومعاكسات كثيرة . وقلة نوم

وأكل . . لقد قررت أن تخوض الزحام وأن تنتصر . . فالمعركة مع الرجال لم تنته والرجل يريد أن يرجع في كلامه ويعيدها إلى البيت . . ولذلك فهو واقف يتفرج عليها شامتاً فيها . . ولا يريد أن يعيدها إلى البيت وإنما يريدها هي أن تطلب العودة إلى البيت لأنها تعبت ولأنها لم تعد تجد نفسها . فلا هي إمرأة ولا هي رجل . . ولا هي قادرة على أن تكون عاملة وزوجة وأن تكون أماً في وقت واحد ولا قادرة على أن تنجح فيها جميعاً ولا قادرة على أن تعترف بهذا العجز . . أو بالتغلب على كل هذه التحديات التي انفردت بها هي وحدها . . فالرجل لأنه ولأن المجتمع من صنع الرجل ولأنه ولد حراً ويزداد حرية ولأنه ليس مسئولاً عن شغل البيت والحضانة والرضاعة فهو في وضع أحسن ومركز أقوى . . ولا يريد أن يمد يد المساعدة للمرأة . . كأنه يريد أن يعاقبها على الذي إختارته . . بين المساواة والعمل والأمومة والزوجية وفي نفس الوقت أن تبقى جميلة أنيقة كأنها بلا عمل . . وأن تعمل وتكسب وتنجح كأنها ليست أماً . . وأن تهتم بالطفل وتربيته كأنها طبيبة ومدرسة وأم وبلا أية مسئوليات أخرى ! أن متاعب المرأة الآن هي متاعب الحرية والمساواة ولذلك فالزوج يقول لها أنت اخترت الحرية . . أنت تريدين المساواة . . أنت ضد الطبيعة فاشربي من الكأس التي تخيلت يوماً ما أنها شمبانيا . . إشربي ولا تفتحي فمك بكلمة واحد !

والمرأة تريد من الرجل نوعاً آخر من المساواة : أن يتساوى الاثنان أمام مسئوليات البيت والأطفال . فليساعدها في البيت . فليذاكر للأولاد . . فهي تعمل مثله تماماً وتتعب . . ولكنه لا

يكاد يصل إلى البيت حتى يرتمي على الفراش ويترك لها أن تستأنف عملها في البيت . . كأنها لا تعمل خارجه !

* * *

ومن هذه المساواة الأليمة والشكوى منها تولدت قيم مختلفة . .

فالمرأة اتجهت الآن إلى أن تكون مثل أمها وجدتها . تريد أن تكون ست بيت . . أن تكون أماً . أن يكون بيتها عشاً دافئاً . صغيراً هادئاً هانئاً . أن تجلس أمام المرآة . . أن تلبس . . أن تتألق أن تنتظر الزوج الصديق الحبيب الأب . أن تحقق له الراحة والسعادة أن تكون في الانتظار . . فالانتظار لا يضايقها . بل يسعدها أن تنظر إلى الساعة وتتساءل : بعد ساعة . . بعد نصف سوف يجيء . يراني على سنجة عشرة سيقول : ما هذا الجمال . . أو حتى ليس من الضروري أن يقول . . سوف أرى الوميض في عينيه . . ذلك الوميض الذي رأيته أيام الخطوبة وشهر العسل وسوف أترجم هذه الإشارة بسرعة . . ومعناها : إنني أعجبه . . إنني جميلة . . أنه يريد أن يأكل وأن ينام . .

وتقول لنفسها أيضاً : هو الذي يأتي بالفلوس . . لا يهم إن كانت كثيرة . . هو الذي يختار فساتيني وألوانها . . أنا لا أتمسك بأي لون . . هو الذي يفرض اللون . . أنا أحب ذلك . . هو الذي يشتري البارفان . . هو الذي يقول : شدي الفستان على ركبتك ! لماذا الصدر واسع ؟

لماذا قصرت شعرك أنت تعلمين أنني أحب الشعر

الطويل ؟ لا ترفعي شعرك أحب أن أراه على جبهتك . . الأحمر غامق . . وإذا سرنا في الشارع فأنا إلى جواره أو وراءه . . وإذا نظر أحد ناحيتي فإنه يتضايق . . إنه يغار وأنا أحب الرجل الغيور . . ولو قال لي . . تحجبي غداً . فلن أتردد . . ما دام يريد ذلك فأنا أريده أيضاً . . وإذا قال لي لا أحب فلانة صاحبتك . . انتهى فلن أراها أو إنني أحب فلاناً زوج صاحبتك وأنا أعرف أنك لاتحبينها . . فليكن . . إنني أحب الرجل الذي هو رجل . . الذي له رأي . . والذي له كلمة . . وله قرار . . والذي لا يترك شيئاً للصدف . . كل شيء في يده . . في قبضته . . وأنا في قبضته وفي حضنه وفي عينه وعلى رأسه . . أحب ذلك !

والرجل الآن قد امتلأت عيناه بالصور التي لا يحبها من الفتيات العاريات ونصف العاريات . . ليست السيقان والصدور العارية فقط وإنما الألفاظ العارية من الأنوثة والحشمة . . يكره المرأة التي تدخن كالرجل . . المرأة التي ترتدي البنطلون ولا يهمها ما الذي فعله البنطلون بها . . والتي تضع ساقاً على ساق لتكشف الساقين معاً . . ولا يحب المرأة التي إذا تحدثت إليه اقتربت منه جداً كأنها تريد أن تقول له : أنا لا يهمني كم هي المسافة بيني وبينك . . فأنا مثلك ولا أخاف منك . . ولا يحب المرأة التي صوتها مرتفع كأنها رجل أو تحاول أن تكون . . ولا يحب المرأة زميلته في العمل التي تجلس على مكتبه وقد ضغط الفستان على فخذيها وأبرز صدرها ونشر عطرها . . يحب المرأة المحتشمة التي إذا تحدثت إلى الرجل

أكدت له دائماً أنها أنثى وأنها سوف تبقى كذلك مهما اقتربت منه : فالصوت خفيض والنظر كسير والملابس واسعة والماكياج قليل . . المرأة التي تفرض إحترامها عليك لأنها محترمة . . المرأة التي إذا نظرت إليها تحس أنك أمام «حرم» . . حرمات . . قيم . . مثل عليا . . المرأة التي تذكرك بأن هناك حدوداً . . وأن هناك دينا . . وأن للدين حدوداً لايصح أن يتعداها أحد . . المرأة المؤمنة . . وإيمانها صامت قوي ، وليس إيمانها ثرثاراً «فارغاً» !

إن الرجل الآن يفضل المرأة المحتشمة . . ولا يهم أن اتخذ الإحتشام نوعاً من الحجاب . هذا الحجاب معناه : أنها تبرز من ملامحها ما هو ضروري لها لكي تعمل وترى . . فتكشف يديها ووجهها . . أما بقية ملامحها فليست من حق كل الناس . . وإنما من حق البيت . . جامدة . . وإنما هي متعلمة محترمة . . ومحترمة لأنها فاضلة . . وفاضلة لأنها مؤمنة . . ومؤمنة لأنها متعلمة . . فالعلم لا ينكر الإيمان ، والإيمان لا يرفض العلم والفضيلة ليست ضد الاختلاط والمساواة ليست دعوة للفجور!

* * *

ولا توجد إمراة لا تحب أن تكون أماً بل إن المرأة أم منذ طفولتها فهي تلعب بالعروسة وتنام إلى جوارها وترضعها وتطعمها . . أنها أم دون أن تدري .

أنها أم بالغريزة .

وفي أوروبا وأمريكا حيث أصبح الزواج صعباً فإن المرأة تصبح أماً بلا زواج وبعد أن أصبحت الأمور عبئاً على الأم

العاملة المتحررة فإنها تلد الطفلة وتتركها للخادم أو تلد الطفلة وتبيعها لمن يشتريها من الأمهات اللاتي لم ينجبن بل أن هنـاك شركات في أمريكا عندها قوائم بـاحتياجـات الناس في العـالم كله : طفل أزرق العينين . طفل أسمر أخضر العينين . طفل أسود الشعر . .

وهذه الشركات تذهب إلى الطالبات في الجامعات الأمريكية وتتفق معهن على الطفـل المطلوب وتتكفـل بمصاريف الـولادة والحضانة ومصاريف الجامعة أيضاً . ولذلك تبحث الطالبة عن الأب الذي تتوافر فيه الصفات المطلوبة ـ فهي تريد أن تكون أماً بعض الـوقت . وتتحـرر من الأمـومـة . . . كـما تحـررت من الزواج . .

فلا إحترام عندها ولا دين . .

ولذلك فالدين الجديد هو الذي يحترم الإنسان والعلاقة بين الرجل والمرأة . . وعناصر هذا الدين هي الحب والاحـترام ، والزواج والاحترام ، والأبوة والأمومة والإحترام للطفل . .

فليس غريباً إذن أن تجد الشاب المؤمن يفضلها : محجبة . . وليس عجيباً أن تجد الشابة المؤمنة تفضله : سي السيد . .

لقد زهقت المرأة من دورها كرجل . أو كنصف رجل .

وزهق الرجل من دوره كأنه نصف أنثى تتحكم فيه المرأة الحديثة بصراحتها وزعيقها وعضلاتها .

* * *

أما المرأة الغربية فهي تريد أن تذيب المسافة التي بينها وبين

الرجل ولذلك فهي تربي عضلاتها . . فالمرأة ذات العضلات هي المرأة المثالية . . والمرأة التي تلعب بالنار في الحرب والسياسة هي المرأة الجديدة . . فقد أدركت المرأة أن الرجل لا يزال متقدماً عليها . . ولذلك تريد أن تقطع الخطوات الباقية بالقوة . . قوة الجسم والعضلات . . تكتسب المرأة العضلات فهي تفقد الأنوثة والنعومة . . فإذا أصبحت ذات عضلات فلا هي رجل ولا هي إمرأة . . تماماً كالرجل الناعم المتكسر ، فلا هو انثى ولا هو رجل . .

وآخر تطورات المرأة الغربية التي تحررت من أنوثتها أنها إذا انفصلت عن زوجها تركت له الأولاد . . وراحت تبحث عن حريتها مع رجل آخر . . أو رجال آخرين . . وأصبح الرجل الآن مثل «فرس البحر» ذلك الحيوان الوحيد في العالم الذي يحتفظ بالبيض ويلقحه ويلده . . أما الأم فقد ذهبت تبحث عن ذكر آخر ! .

وقد خلقت المرأة الغربية نوعين من الأمهات : الأم التي تلد الطفل . . وهي الأم الوالدة . . والأم التي تتبناه وهي الأم المربية . .

فالأولى لا تريد أن تتقيد بطفل . . بأمومة طفل . . والثانية تشتري هذا القيد . .

وانقلبت الأوضاع الآن . . فالأب هو الذي يريد أن يتقيد بالأبوة وتربية الأطفال . . والمرأة شامتة في هذا التغيير التاريخي . . فالرجل يعاني أخيراً من عذاب الأبوة ، ما كانت المرأة تعانيه ألوف السنين .

ولكن سواء كان الـرجل هـو الذي يشمت أو هي المـرأة الآن ، فالشيىء المؤكد أن الأسرة قد انتهت . تفككت . . انهار العش . . إنهار البيت. . إنها أساس الحياة الإجتماعية السليمة المحترمة . . ولا دين ولا أخلاق ولا قيم . . وإنما هو التلاعب بالقيم الإنسانية . وتبديد لكل ما كسبه الإنسان في ألوف السنين من أجـل أن يكون متحضـراً في علاقـاته مـع المـرأة والأولاد والناس ، لكي يتمكن من دفع التطور إلى الأمام ليزداد نصيب الإنسـان من التحـرر من الخـوف والجـوع والجهـل والـظلم والمرض .

***

إن هذا الإتجاه الجديد بين الشباب المؤمن والحريص على العلاقات المحترمة وعلى جوهـر الأسرة قد وقـع في كل الـدنيا إتفاقية سرية بين الجنسين من أجل تصحيح أخطاء التـطور أو التهور الإجتماعي . . واليأس الأخلاقي .

لقد أصبح المثل الأعلى للفتاة أنها تريد زوجها رجلاً . . لا عيلاً . .

وأنه يريد الزوجة أنثى . . لا غلاماً . . وأنهما معاً على يقين من قدرتهما على خلق طفل فاضل سليم الجسم والذوق عميق الإيمان .

وهذا «الحل السعيد» لم يفرضه الرجل على المرأة ، ولا المرأة عـلى الرجـل . . وإنما اهتـدى إليه الإثنـان في ظروف واحـدة يرفضانها وعكس أوضاع منحرفـة وضد تيـار جارف لإنسـانية الإنسان وحقه في أن يقول ؛ «نعم لما يحب . . ولا . . للذي

يكره . . وأن يكون الزواج عناقاًحاراً لألف نعم وألف لا . .
فلا نعرف من الذي قال : نعم ومن الذي قال : لا .

فالإثنان ينطقان . . معاً وفي تنسيق كامل لكل ما بينهما من خلاف من أجل الوفاق والإتفاق في النهاية! .

يجيء الحب مبكراً
يجيء الحب متأخراً
ولكنه يجيء !

أستاذنا عباس العقاد ليست له تجارب عميقة في الحب ـ هو الذي أحب . وكان حبه من طرف واحد . ولذلك فهو رأى المرأة كما يرى العلماء الفئران والأرانب والكلاب في المعامل . . اقترب ودرس وحلل وانتهى إلى نظريات في السلوك الحيواني . . أما عذابه في الحب ، فهو قمة العذاب . أنه الشاعر أحب ، أنه الفليسوف تعذب . . ثم أنه احتقر هذا الحب . لأنه لم يكن حباً على مستواه . وإنما هو الحب الذي تيسر له . .

يقول أستاذنا العقاد : خنها ولا تخلص لها أبداً تخلص إلى أغلى غواليها !

أي عليك بإهانتها واحتقارها وهي تجري وراءك . . وهي تعطيك بالجملة ما رفضت أن تعطيه لك بالقطاعي . . أطردها تطاردك ، طاردها تطرك . .

غلطان يا أستاذ !

فالحب نوع من العبادة . إن لم يكن عبادة . فأنت تحبها . لأنك ترى فيها كل ما يعجبك . كل ما يمتعك . كل ما

تحترم . . وكل ما يغريـك أنت أيضاً . فـأنت تحب نفسك في المحبوبة . وتراها إستمراراً لك ، أو تكملة لك أو أملاً لك . . أو مستقبلك . . كيف حدث ذلك ؟

أنت لا تعرف . ولكنه الحب قادر على أن يعيد صياغة ما كان وما هو كائن وما سوف يكون . . وكل ذلك لحسابك أنت . ومن أجل أن يبقى الذي بينك وبين المحبوبة . . وأن يكبر بك ومعك ولك . . كيف ؟ لا توجد خطة معروفـة . . لا يوجـد برنامج لدرجات الحب وحالاته ومراحله . . إنه بسرعة يقفز من اللاشيء إلى كل شيء . .

وأنت عندما تخون من تحب ، فإنك لا تحب . . قد يدفعك الإنتقام إلى ذلك . . قد يدفعك الملل . . قد يدفعك اليأس إلى أن تكفـر بكل مـا هو جميـل في الدنيـا . . فقد هـانت عليك الدنيا . . وأنت هنت عليهـا . . فالحب والكـراهية سـواء . . والحياة والموت سواء . . هنا فقط يمكن أن تخون . . بل أنت لا تخون . . لأنه عندما تخون فلا يكون الحب . . فلا خيانة مـع الحب . . وإنما هو الحب قد انتهى في لحظة جنون . . في لحظة يأس . في لحظة غضب . . وبدأت مغامرة جديدة . . .

والمحبوبة إذا طـاردتك فـإنها تريـد أن تحتفظ بك . . أن تعيدك إلى عقلك ، أو تعيد لك عقلك . .

إلا إذا كانت هي التي خانت وكان ذلك عن عمد ، لقد انتهى الحب .

وأي شيء تفعله بعد ذلك فليس خيـانة لأحـد . . لقد

ذهب هذا الأحد . . تلاشى . . كأنه لم يكن . . فأنت لا تخون من ليس موجوداً !

وإنما أنت في أعقاب تجربة أليمة . . أنت أخرجت سكيناً من جيبك ومزقت شرياناً يربط قلبك بقلبها . . انتهى الذي بينكما . . نزف . . حتى جف ما بينكما !

فأنت لا تطارد من تحب لأنه خانك ، ولكنك تريد أن تحتفظ به قبل أن يمضي كل شيء جميل . وقد تقفز كالذئب . . وقد لا تقفز . ولكن ليس قبل أن تقول كلمتك . . قبل أن ترثى حالك وحبك . . فليس بعد الخيانة إلا كلمة العزاء . تقولها لنفسك في نفسك . . تمد يدك إلى يدك وتدعو لنفسك بطول البقاء بعد الذي مات منك . . ومات فيك !

غلطان يا أستاذ !

***

الأستاذ توفيق الحكيم ليست له تجارب في الحب . . وأكثر مغامراته كانت من بعيد . . رأى وتخيل وأحب وتخيل وكتب وتخيل . . وله تجارب أكثر في قصص الأزواج . استمع طويلاً وكثيراً . . فلما عرف الزواج لعن الحب . . ولما عرف الحب متأخراً جداً لعن الزواج . . فالزواج ملعون بغير حب ، والحب مقتول بعد زواج !

يقول الأستاذ توفيق الحكيم : أنها خدعتك بالجنس فانخدعت بالحب !

أي أن الذي أحببت فيها هو جسمها . . جمالها . .

مشاعرها . . أحضانها . . هذا الدفء . . هـذه الكهرباء . . هذه النشوة . . فـظننت أن هذا هـو الحب . . ولو ذهبت إلى حديقة الحيوان ورأيت الإناث في مواسم الأخصاب ونظرت إلى عيني الأنثى وشفتيها لما وجدت خلافاً بينها وبين المرأة . . أنها الكيميـاء التي في جسم الحيـوان من أجـل استقبـال الـذكـر والحيوانات المنوية حتى يكون كائناً جديداً وتستمر الحياة . . هذه الأنثى التي تراها في الأقفاص لا قرأت شعراً ولا سمعت أغنية ، ولا رأت إمرأة في أحضان رجل . . أنها الغريزة . . فالذي تراه في هـذه اللحظة الملتهبـة العميقة ليس حبـاً وإنمـا هـو صميم الجنس . . فالمرأة قد خدعتك بحيويتها وأنوثتها وحرصها على أن تكون أماً . . من أي رجل . . أنت أو غيرك . . فليس هـذا حباً !

صح يا أستاذ !

ولكن لم تسأل أية إمرأة يا أستاذ كيف يكون شعـورها في حضن رجل لا تحبه . . كيف يكـون شكلها ولـونها في حالـة الإغتصـاب . . كيف تكون الفتـاة الصغـيرة في حضن رجـل عجوز . . كيف تكون هذه المشاعر بين رجل وإمرأة ليس بينهـما حب . . وإنما هو «نوع» من الأداء . وإذا كان الجنس مع الحب مثل «الطرب» فإن الجنس بلا حب مثل «الأداء» . . حركـات كأنها حب وليست حباً !

إذهب إلى المحاكم الشرعية وإستمع إلى ما تقوله النساء أمام القاضي يقول لها : وأنت ناقصك ايه ؟

تقول : ناقصني راجل !

ـ أمال اللى قدامك ده إيه ؟

ـ أنه أبو العيال يا سعادة القاضي !

ـ يعني إيه يا ست أنت ؟

ـ يعني هو اللى أنا جبت منه العيال دول . . واللّه ما أعرف العيال دى جت إزاى !

صح كلامك يا ست . . وألف مرة صح أنه «ذكر» ولكنه ليس رجلاً ليس زوجاً . . وليس حبيباً !

وإنما العكس هو الأصح يا أستاذنا الحكيم . . أنه الحب الذي يجعل الحد الأدنى بين كل شيء ، هو كل شيء . . لمسة الأصابع كأنها أحضان . . الأحضان كأنها نسمات الجنة . . والقبلة كأنها خمر بلا كأس . . والقليل من اللمس مع الحب ، تعادل ألف ألف لمس وهمس وحضن بغير حب !

ولذلك يمكن أن يقول : خدعتك بالحب ، فإنخدعت بالجنس !

مع أن الحب الصادق ليس خداعاً وإنما هو الحقيقة يغنيها . . مطرب له جسمان وعقلان وقلبان !

غلطان أنت يا أستاذ !

* * *

أستاذنا الجليل طه حسين كانت له جلسات ولمسات وهمسات عاش بالقرب من الحب . . ولكنه لم يستطع أن يقول **أنه أحب . . وإن كان توفيق الحكيم قد أكد لي مرة أنه أحب . . وأنه وأنه . . ولكن أستاذنا طه حسين لم يعرف الحب إلا قليلاً .**

ولكن كان أثر القليل في نفسه كثيراً طويلاً عميقاً . .

يقول طه حسين : الحب هرش في القلب لا تبلغه الأصابع !

ويقول طه حسين : أنه حرير كله !

أن الحب نوع من الأكلان في القلب . أكلان في الأعماق لا تستطيع أن تهرشه . . وإنما تشعر به هناك في داخلك ولا حيلة لك فيه . . ولا حيلة لك معه . .

ليس كله حريراً ولكنه صوف وقطن وخيش وشائك . . وأحياناً يكون حريراً وأحياناً حديداً . . وأحياناً تتمنى لو تحول الحرير إلى ثوب زفاف . . أو إلى كفن . . تموت فيه وتموت به . . ولكن الحب نار أيضاً يحرق الحرير . . والـخ غيرة شائكة ، ورغبة في الأمتلاك خانقة . . والحب ككل كائن حي ينمو في قلبين في وقت واحد . . ويموت في أوقات مختلفة . . والحب في أوله الأطفال الصغار يبحث عن التسلية وعلى الضحك . . ومفرداته ساذجة . . ويكبر الحب ويكون غليظ الصوت . . وتتحول الأعصاب إلى عضلات . وينشغل الشاب بحياته ومستقبله عن قلبه . . وتمتلىء دنيا الشاب بمشاكل الرجولة ، ويتوكأ الرجل على هموم الشيخوخة . . ويشيخ القلب ويتساند القلب على ذكرياته والذي كان والذي لم يعد كائناً . . ويكون الحب ، كما كانت الطفولة : ذكرى . .

فليس الحب هرشاً فقط يا أستاذ وإنما هو أكثر من ذلك . . أنه وجع . . ألم . . مرض . . أنه إستغراق . . أنه إحتلال . .

أنه إحتكار . . ويكون مثل كل ألم تريد التخفف منه . . ومثل كان مرض نريد التخلص منه . .

فليس الحب دقات على الباب دون أن ينفتح الباب . . وإنما هو دقات تؤدي إلى فتح الباب والشباك وبعد ذلك ينفتح كل شيىء بلا دقات . . وليس الحب في القلب . . ولكنه في العقل وفي الـذراع والسـاق وفي العـين والأذن والأنف والشـفـاه والشعر . في كل شيىء . . انظر إلى فتاة تقـابل حبيبهـا لأول مرة . . انظر ماذا تفعل في المرآة وقد غيرت كل الفساتين وكل الأحذية وكل العطور ونـظرت لنفسها من هنـا ومن هناك . . ورأت وجهها وعنقها وظهرها . . ومشيتها وإبتسامتها . . فليس هرشاً في القلب . . ولكنه هرش في كل جسمها وكل ما تضعه على جسمها وفي أصابعها وهي تصافح حبيبها . . أنها عن طريق مصـافحـة الحبيب تعـرف أن كـان الحب هنـاك ، أو زاد أو نقص . . فليست أصابعها إلا ترمومتراً عجيباً .

* * *

في آخر حديث تليفزيوني مع مؤرخنا الكبـير عبد الـرحمن الرافعي سألته فقال الحب يجيء بعد الزواج !

وهذه مرحلة تاريخية من مراحل الزواج : أن يتزوج الرجل غيباً . سأل عن العـروس فقيل أنها بنت فـلان المؤدب التقي الورع . وأنها تعلمت في مدرسة كذا وإن أحداً لم يرها . . وإذا رآها . . وإذا رآها فالفستان طويل الأكمام والذيل . والصوت خفيض . ولا تضع الأبيض والأحمر . . وهذا يكفي ويقال جميلة محترمة . وهذا أكثر من الكفاية ثم يكون الزواج . وفي ذلـك

الوقت لم تكن العروس تطلب هي الأخرى أكثر من أنه فلان ابن فلان المهذب الذي لا يرفع عينيه في أية واحدة ولكنه رجل له مستقبل وهو يريد حياة كريمة . وأسرة محترمة . انتهى .

ويكون الزواج . ويجد الزوج في زوجته كل ما تمنى . فكيف لا يحبها . أحبها . واستمر الزواج والحب معاً؛ . فالحب يجيء بعد الزواج . .

صح في زمانك يا أستاذ . وليس صحاً في زماننا . .

فنحن في عصر السوبر ماركت والأندية الرياضية والثلاجات المفتوحة والمطاعم والناس يعاينون بعضهم البعض . . ويقلبون في البضاعة كما في السوبر ماركت . . ويرى صناعتها وتاريخ الإنتاج وزمن الصلاحية وكم ثمنها . . وإن كان هذا الصنف هو الأنسب أو ذلك الصنف . . ولا بد أن يرى عن قرب وأن يسمع بنفسه . . ويلتقي الفتى والفتاة تحت أعين الأسرتين أو من وراء ظهرهما . . المهم أن يرى وأن يسمع وأن يناقش . . وكل ذلك نوع من اللمس عن بعد . . وإذا كنا نفعل ذلك في البطيخ وفي الحمص والسوداني . . وإذا كان اللاعب يفعل ذلك في الكرة قبل أن يضربها ، فكيف بالذي تقاسمه الشقة ، وتنفرد بها إذا طلقها . . حسابات جديدة . . حسابات كثيرة . . أي لا بد أن يكون الرضا والقبول قبل الزواج . . أو الحب قبل الزواج . . وإذا لم يكن الحب قوياً فإن الزواج قادر على قصقصة ريش الحب وتتحول المحبوبة من بلبل إلى فرخة تبيض كل تسعة أشهر . . فالحب وحده هو الذي يجعل البلبل يبيض ويظل بلبلاً . . ويبيض ويظل عصفوراً مغرداً . . فالزواج

بمشاكله قادر على أن يقتل أي حب . . الحياة اليومية والمشاكل . . الخناقات . . سوء الفهم . . التراكمات التي يضاف بعضها إلى بعض حتى تكون سداً عالياً بين الزوجين سداً لا في الفراش . . وإنما في كل وقت وكل مكان .

ولا عيب في أي زوجة أو زوج . . مهما كانت جميلة ومهما كان ذكياً غنياً . . فالتعود يؤدي إلى الملل . . والملل يؤدي إلى أن تبتلع لسانك فلا تقول . . وإذا قلت فلن تلقى رداً على ذلك . .

ومرحلة الصمت عند الأزواج هي المرحلة التي يكون الزوج قال كل ما عنده . . وقالت هي أيضاً . فلا جديد حتى لو قال لها : صباح الخير فإنها لا ترد . . ولا يتوقع منها أن ترد . . وإذا قالت له صباح الخير ، فيمكنه ألا يرد . . وإنما هي تقول له : صباح الخير لأنه قال لها شيئاً مشابهاً من ذلك منذ أيام . . فلو لم يكن هناك حب بين الازواج ـ قبل الزواج ، ينتهي الزواج إلى عشرة طيبة . . أو عشرة سيئة بعد فترة قصيرة !

فأنت غلطان يا أستاذ !

* * *

يقول أستاذ الحرية والإنسانية جان ـ جاك روسو : الحب فاكهة الزوجية !

أي إذا كان هناك زواج فالحب هو الفاكهة !

ولكن السؤال يا أستاذ هو متى تكون هذه الفاكهة ؟

إن كانت في أول الطعام فإنها تسد النفس عن بقية الطعام . . وإن كانت في آخر الطعام ، فنحن لا نعرف بعد كم

سنة تجيء هذه الفاكهة . . بعد سنة . . سنتين . . وفي هذه السنة والسنتين ماذا يكون طعم الزواج . . وهل يستطيع الزوجان أن يصبرا على طعام ليس له نهاية حلوة . . يصبران سنة مرة . . سنة من اللحم والبطاطس بلا أمل في أن تجيء الفاكهة . .

الحب يا أستاذ طفل صغير ليس له ترتيب ولا نظام . . يأكل الفاكهة في الأول وفي وسط الطعام وعند نهايته . . وبعد النهاية يأكل الجبنة وبعد ذلك الفاكهة أيضاً . وأساطير الإغريق كانت صادقة تماماً عندما صورت الحب طفلاً يلهو بالسهام الذهبية والفضية . . السهام الذهبية يطلقها ليشبك قلبين معاً . . أنه طفل يلهو بقلوب وعقول وأقدار الناس . ولا يعرف ما الذي يؤدي إليه هذا العبث . . فالحب عبث ولكنه عبث جاد !

ويقول أستاذ الشعر الرومانسي الألماني ريلكه : أنني أحببتها طفلاً وشاباً ورجلاً ، وعندما جاءني الموت كان موتي في عينيها !

أي أنه أحب فتاة واحدة . . أو ملامح واحدة لم تتغير . . فالتي أحبها وهو صغير ظلت ملامحها ملتصقة بعينيه . فأحب واحدة شبيهة بالتي أحبها وهو طفل . . أي أن الإنسان لا يحب إلا إمرأة واحدة !

وكثيراً ما يتزوج إمرأة ، فإذا إنفصلا ، تزوج واحدة شبيهة بالأولى . وكأنه أراد أن يعيش قصة حب واحدة ولكن بصور مختلفة . . أو مع صور مختلفة . . فالقلب له واحدة فقط !

غلطان يا أستاذ . .

فـأنت شخصياً أحببت ست مـرات . . إثنتين من ألمـانيا وواحدة من تشيكوسلوفاكيا وواحدة من روسيا وواحدة فرنسية أما التي مت على صـدرها فهي مصريـة فاتنـة وأسمها نعمت علوي . وهي جميلة جداً وملامحها تركية مصرية . وهي تختلف تماماً عن كل الحبيبات السابقات . . وقـد حاولت أنـا أن أجد شبهـاً بينهن . . ربمـا الشفتـان . . ربمـا الـوجـه الجميــل . . الخطوط . . أما العيون فمختلفة تمـاماً . . أمـا الشعر . . أمـا أصابع اليدين . . أما الطول . أما الصوت فواحـدة لها بحـة أنثــى الافعـــى . . وواحــدة لها دلال البلبـــل . . وواحــدة إذا نطقت فهذا هو خرير الشمبانيا يتدفق من فوق جبال الآلهة . . ولكن الشاعر ريلكه هو الذي يجد شبهـاً بينهن جميعاً . . فهن جميعاً في عينيه واحدة ــ في عينيه هو !

وهناك العشق وهناك الحب .

فالعاشق يحب المرأة من كل لـون وطول وعـرض . . أنه إنسان عنده شراهة في الطعام ، يأكل كل ما يقدم له . يبتلع لا يستمتع . .

أما المحب فهو الذي يحب الصفات والمعاني والحوار وهـو الذي يشتاق ويحن ويقلق ويخاف ويغار على واحدة فقط . .

فالحب له واحدة . .

والعشق له ألف . .

فالحب نوع من الرجيم ــ طعام خاص . . والعشق شراهة لكل طعام . .

فالحب قطاع خاص . .

والعشق قطاع عام .

فأنت إذن غلطان يا أستاذ !

أحكي لك تجربتي . وأنا صغير كنت انظر من نافذة بيتنا إلى بنت الجيران . . أنها في الشباك المواجه . . كنت أقف وراء الشباك أراها تمسح الزجاج . . صغيرة حلوة . . وجهها مستدير وكلها حيوية . . كل مناسبة عندها هي مناسبة للرقص . . مرة يكون شعرها على وجهها ومرة على ظهرها . . مرة قصيرة مرة طويلة . . وأندهش كيف أن لديها مثل هذه القدرة على التشكل والتلون . . ولا أعرف ملامحها بوضوح . . وفي مرة كنت أظهر من وراء الشباك لكي تراني وتعرف أنني أترقبها وانتظرها . . ومرة كنت أراها سيدة كبيرة . . وعرفت فيما بعد أن الصغيرة هي الأبنة والكبيرة هي الأم . . وكنت أندهش كيف أنني أخلط بين الإثنتين . . وكل ذلك يدل على إضطرابي وخجلي . .

ولم تكن هذه هي الفتاة الوحيدة في حياة تلميذ في المدرسة الثانوية . وكانت تعجبني فتاة أخرى تسكن عند نهاية الشارع . . رأيتها في الشارع . . واستدرت أراها وأجدها هي الأخرى قد استدارت لتراني . . ويرتفع الدم في وجهي خجلاً . . لقد ضبطتني وأنا أتلصص عليها . . ولم تكن عندي الجرأة في أن أذهب إلى ما بعد ذلك . . وما دامت قد عرفت أنني أراها ، فلماذا لا أذهب إليها . . صعب جداً في ذلك الوقت . . وهذه الفتاة شعرها أسود عيناها واسعتان . وإذا مشت فهي

كالبطة منفرجة الساقين . . وفيما بعد عرفت أنها تمشي مثل راقصات البالية . .

وعلى الجانب الآخر من الشارع كانت فتاة إيطالية لا تكاد تراني حتى تقول لي : بون جورنو ـ صباح الخير ـ تقولها وكأنها ألقت لبانه من شفتيها . . تقولها دون أن يكون لها أية دلالة خاصة . . أي ما دامت قد رأتني وهي تعرفني لأنني صديق لأخيها فلا بد التحية . . وكنت أقول لها ؛ بون جورنو ماريا . . فقد كنت أتكلم الإيطالية بطلاقة . . كما كنت أتكلم الألمانية بطلاقة أيضاً . وكانت عندي الشجاعة على أن أتحدث إليها وأراها . . ومن حين إلى حين تضبطني انظر إلى وجهها الجميل ، وشعرها الذهبي . . وأفتعل أي سبب لكي أصافحها مودعاً . . جميلة الوجه والعينين والجبين والشفتين والعنق . . في غاية الحيوية . . أما صوتها فجميل عندما تتكلم وعندما تغني . ولكنها أخت صاحبي . . وكنت أتمنى أن يكون بيني وبينها أية علاقة . هناك علاقة ما . . ولكن لا أستطيع أن أمشي معها في الشارع فهي تفضل الشبان الطلاينة . وأن كانت في كل مرة تراني تترك هؤلاء الشبان وتقف وتقول أي كلام . . وكانت أشجع مني . . فهي من حين إلى حين تمسكني من كتفي وتقول لي : أنت لسه نايم !

وكنت أتمنى ذلك لكي أحلم بها على راحتي !

أما الرجل الذي كان يعلمنا اللغة الألمانية وصاحب محل ساعات . . فكانت إبنته أجمل مخلوقات الله . كيف ؟ لا أعرف . ولكن لا بد أن تكون هذه أجمل جميلات الأرض . .

شقـراء . . مـا هـذا اللون في بشرتها . لبـن مضـاف إليـه النبيـذ مضـاف إليه اليـاسمين لا أعـرف كيف أصف . . أما عينـاها فقطعة من السماء وأما شفتاها فورقتان لوردة مقدسة . أما شعرها فسبائك الذهب . . وأما ذراعاها . . وأمـا . . وأما . . فكـل شيء فيها ليس له نظير عند أحد . . حتى أمها جميلة . ليست في جمـال إبنتها . . وكـانت الأم إذا رأتني أقف معهـا طـويـلاً وكثيراً ، كانت تضحك جداً عندما تجدني قد وضعت كتبي تحت قدميها لكي تقف هي وتكون في مثل طولي . . فكانت تمد يديها إلى الكتب وتضعها فوق رأس إبنتها لكي تكون في مثل طولي . . في ذلك الوقت كتبت في مذكراتي وأنا طفل : هناك نوعان من المساواة . . أن يكون الإنسان على «قدم» المساواة مع أحد . . وأن يكون على «رأس» المساواة . . ومرة تتساوى الأقدام عـلى أرض واحدة . . ومرة تتساوى الرؤوس عند خط واحد !

أما الحب مع عظيم الأحترام فكان لخالتي . . وهي أجمل إمرأة رأيتها في حياتي طفلاً وشاباً ورجلاً . . يرحمها اللّه . . لا صورتها ولا صوتها ولا قلبها ولا عقلها ولا حنانها . . وكنت لا أعرف ما هي الفـوارق بين هـذه الجميلات . . الكـل معاً . والكل في عيني وعلى رأسي وفي قلبي . . كان قلبي «مدووشاً» بهذه الجميلات . ثم إنتقلت إلى جميلات الصور . . وبعد ذلك إلى جميلات السينما . . وتصعلك قلبي وتشرد بين اللغات وبين العواصم . . وبين الألوان وكل سن وطبقة ودين . .

فليس صحيحاً أن القلب له واحدة . . وأن الحب واحد ولكن بصور مختلفة . . وإنما الإنسان يتقلب ويتـألب حتى يجد

الأنسب في وقت حاجته . . وفي الحياة أشكال وألوان . . ولكن القلب لا ينفتح إلا لواحدة في ظروف خاصة . . فيحب التي رآها قبل ذلك ولم ينبهر . . ويكره التي اهتز لها وينصرف عنها . .

والشاعر القديم قال : اللّه جميل يحب الجمال . يصنع الجمال لأنه جميل ويحب ما صنعت يداه . . . ويدعونا إلى أن نحبه في مخلوقاته وفي خيراته . . وقد وضع اللّه قوانين لكل عاطفة . . حتى لا يعتدي قلب على قلب وعقل على عقل . . وكما أنه لا نهاية لقدرة اللّه ، فلا نهاية أيضاً للجمال الذي صنعه في السماء والأرض والإنسان والحيوان والنبات والمشاعر بكل ذلك . .

فأنا غلطان أيضاً !

فالذي كنت أسميه حباً ليس إلا نوعاً من حب الإستطلاع . . ليس إلا نوعاً من فتح قلبي على الآخر . . ويكون هذا الإنفتاخ والتفتح دعوة للجميلات أن يدخلن . . ثم أقفل الباب على واحدة منهن . . ولقد أمضيت من عمري طويلاً أفتح باب القلب وأنسى أن أغلقه . . فلم يكن قلبي مقراً ولا مستقراً وإنما كان ممراً . . وأنا عندما حاولت أن أغلقه ، قفلته على أصبعي . . على عقلي . . قفلت قلبي على قلبي !!

ويعيش الإنسان ويموت وهو يتوهم أنه أحب ألف واحدة . . والحقيقة أنه لا يحصى عدد المحبوبات إنما يحصى عدد دقات القلب . . فليس كل من دق لها القلب محبوبة . . أن القلب خادم للعقل وخادم للغريزة . . أنه مثل رجل مهذب كلما

رأى جميلة وقف تحية لها . . وليس معنى التحية أنه يحبها . . ولكنه فقط يشعر بوجودها . . ولا بد من اختزانها وعبادة الجمال في ملامحها . .

لقد كان قلبي مثل أبواب الفنادق دواراً . . يدور ويدور . . والجميلات يدخلن أو يخرجن . . أنه يدور بوعي مني أو بغير وعي . . وتلك مرحلة من مراحل العمر وبعدها تجيء التجربة والنضج وحسن التقدير . . فتعتدل الموازين والمكاييل والمقاييس وتستقر الترمومترات . . فيكون الحب الذي يلتقي فيه العقل والقلب والاحترام ــ ولا يجيء ذلك إلا مرة في العمر . . وربما مرتين . . أو يمضي العمر كله ولا يجيء !

والحب يجيء متأخراً . .

ويجيء مبكراً . .

ولكن لا بد أن يجيء . . وحتى إذا لم يأت ، فإنه لا بد أن يوفد واحداً من نوعه يعتذر عن عدم حضوره . . وكثيراً ما أحببنا الذي جاء يعتذر ووجدنا في ذلك تعويضاً عن الحب الذي غاب ، أو إنتقاماً منه !

عندما أرى صور الغجر أصرخ :
أهلي أهلي !

عندما رأيت فيلماً عن الحياة في جبال أسبانيا وفرنسا ورأيت الكـاميرا تتـوقف طـويـلاً عنـد إحـدى الخيـام . . أنها خيـام الغجر . . عندما رأيت ذلك إنتشرت العقارب في جسمي والنار في رأسي . . ومـلأني الفرح ونهضت واقفـاً أقول : أهـلي . . أهلي . .

أي أن هؤلاء الغجر هم أهلي وأحبابي . . وناسي . .

وليس في دمي نقطة واحدة غجرية وإنما نحن من أصول من الجزيرة العربية ومن المغرب ومن فرنسا وألمانيا ــ مثل كثيرين من أبنـاء المنصورة . وأعـرف أجدادي حتى أوائـل القرن الثـامن عشر !

ولكن حكايتي مع الغجر قديمة وطويلة وقد تناولتها في كثير من كتبي : وداعـاً أيها الملل . . ونحن أولاد الغجـر . . وإلا قليلاً . . وفي صـالـون العقـاد . . وعـاشـوا في حياتـي . . وفي البقية في حياتي .

لا أعـرف البـدايـة ! هـل كـانت إهـانـة من جـدتي لي

ولوالدي . . ربما ، فهي سيدة ، طويلة عريضة قوية شقراء الوجه والشعر زرقاء العينين فيها غطرسة الفرنسيين والألمان وإحتقار عظيم لنا نحن العرب أو نحن المسلمين أو نحن الفقراء . فهي كلما أشارت إلى والدي الذي كان غائباً عنا كانت تقول : هوه . . ده . . إللي هو إيه !!

ولم تكن عندي مفردات للرد عليها . . فكنت أغضب وأترك الطعام وأحياناً ألقي في الطعام بالتراب . . لا في الطبق الذي أمامي ولكن في كل الحلل التي في المطبخ . والنتيجة معروفة : اما أن تضربني أمي أو تضربني جدتي . .

وكنت أفضل أن تضربني جدتي . . لأنني أتماسك في عناد عجيب فلا أبكي ولا أقول : آه . . ولا أترك موقفي أمامها . . فتضيف إلي الشتائم إنني حيوان لا أشعر ولا أتألم ــ وهذا هو الذي كان يسعدني . فقد أوجعتها !

وأبي لم يكن مهندساً ولا طبيباً ولا تاجراً . . ولا غنياً . وإنما هو مفتش زراعي عند عدلي باشا يكن ثم عز الدين بك يكن ثم نعمت هانم يكن . . وكان رجلاً ظريفاً لطيفاً شاعراً ابن نكتة يحب الناس ويحبونه . ويظل يتكلم ويحكي ويقول ويروي والناس تطلب منه المزيد وهم يقولون : الله عليك يا محمد افندي . . وكان والدي أيضاً جميل الصوت . . وكان يرتل القرآن . . وكان يغني أيضاً . . ويذهب لحفلات منيرة المهدية وصالح عبد الحي ويؤذن للصلاة متطوعاً ويصلي بالناس ويخطب فيهم . . وكانت جدتي ترى أنه «عاطل» . . لا عمل له إلا الكلام . فهى لا ترى ما الذي يفعله والدي بالأرض البور كيف

يصلحها ويزرعها ويرويها وكيف ينظم الحدائق ويربي الحيوانات وما الذي يقوله عنه الباشا في كل زيارة لأرضه التي تحولت إلى حدائق بفضل براعة والدي . . ولم تكن في المنصورة ، وإنما كانت في الصعيد . . ولذلك فوالدي غائب عنا معظم الوقت . .

وكانت جدتي تراني لا أشارك الأطفال لعبهم . وإنما أجلس تحت الشجر أقلب في الكتب التي أفهمها والتي لا أفهمها . وكانت تنهال ضرباً على رأسي وظهري وهي تقول : يا شحات . . يا غجري . . يا قرداتي !

وكانت تنطقها بلكنة أجنبية تتحول فيها الحاء إلى هاء والغين إلى جيم والقاف إلى كاف . . مع كلمات أجنبية أخرى ، لم أعرف معناها إلا فيما بعد . . هي التي فتحت عيني واسعة جداً على هؤلاء الغجر . . هي التي دفعتني دفعاً إلى أن أكون واحداً منهم متمنياً ذلك . ثم هارباً إليهم . .

وفي يوم إقتربت من خيام الغجر . . وقد ملأت جيبي بالسكر وأعطيت طفلة في مثل سني كل ما معي . . فاختفت وعادت تقول : أمي بتقول لك عاوزة كمان شوية أرز . .

وبسرعة اختفيت وملأت جيوبي بالأرز والشاي والصابون . . وعدت إليها . .

وفي اليوم التالي على أثر علقة مؤلمة من جدتي ووالدتي هربت إلى خيام الغجر لأعيش بينهم وطالباً يد إبنتهم التي ألعب معها . . ولا أعرف ما الذي حدث . . ولكن وجدتهم يأتون بسكين ويسيلون دمي ويسيلون دمها . . ويطلبون منها أن تشرب من دمي وأن أشرب من دمها . ثم تركونا . ولم أفهم .

وعرفت فيما بعد أننا إخوان لا يحل لنا أن نتزوج . . . وفي نفس الوقت أصبحت الدماء الغجرية تجري في عروقي . . !

ولم تفلح الكرابيج المتوالية على ظهري وجلدي وقدمي أن تمنعني من الهرب إلى خيام الغجر والتعلق بهم والرغبة في الهرب معهم !

نقطة التحول في كل حياتي : أن أمي مريضة طويلاً .

فلا أكاد أراها تمرض حتى يتوقف تفكيري وتتجمد خطواتي وأجدني عند قدميها : ماذا تريدين يا أمي : أنا غلطان حقك علي . . آخر مرة وأمسح خدي في قدميها .

ويظهر الغجر وتختفي خيامهم . . ولكن صورتهم وحياتهم لم تختف من حياتي ولا من خيالي ، ولا أعز أمنياتي . .

فعلاً أنا انتسبت روحياً وعقلياً ووجدانياً وفلسفياً إلى الغجر . . لست أنا وحدي ولكن كل المفكرين . . كل الشبان القلقين . . وأنا لم أعد شاباً ولكني أكثر قلقاً من الشباب . . أو أن صورتي الخارجية قد تغيرت . ولكن أعماقي مضطربة كالموج ، هوجاء كالعواصف ، متلاطمة كسيول البراكين . . أين أنا ؟ أنا في عين الأعصار . . أنا في بطن الحوت . . .

كنت أول الأمر وأنا صغير أتخيل أنني أحد الرهبان . أو أريد أن أكون كذلك . لولا أنه لا رهبانية في الإسلام . . ولولا انني لكي أكون راهباً لا بد أن أتحول إلى المسيحية . .

إذن كيف أكون راهباً : مسيحي الحياة مسلم العقيدة . . لم أجد في كل التاريخ واحداً استطاع أن يكون متناقضاً هزلياً إلا

الفيلسوف «زينون» الذي اختار لنفسه صندوقاً من الزبالة أقام فيه . وكان يقول : ما دام الناس جميعاً زبالة ، فأنا أختار أنظف أنواع الزبالة . !

ولما زاره الاسكندر الأكبر سأله إن كانت له حاجة فقال له : نعم . . أن تبعد عني قليلاً لأنك تحجب الشمس !

ولما أعاد الاسكندر الأكبر السؤال : أليست لك حاجة ؟ قال : بلى . . ألا أراك !

ورأيت واحداً آخر هو هذا الراهب الذي جاء في رواية «تاييس» للكاتب الفرنسي أناتول فرانس . لقد كان هذا الراهب يعيش عند قمة أحد الأعمدة . . انه الراهب العمودي . . إرتفع عن الدنيا ، واختار مكاناً ضيقاً بعيداً عن سطحها . . صحيح أنه لا يبعد عن الأرض كثيراً ، ولكنه يبعد عن الناس كثيراً جداً . إنه ترك الأرض الواسعة واختار السقف الضيق . ولكن هذه المساحة الضيقة كانت بالنسبة له في اتساع السماء . . يكفي أنه لا يرى إلا ملكوت اللّه : السماء والنجوم والشمس والقمر !

ومثله كثيرون من القديسين . فكيف لي ذلك ؟!

ثم الهنود البوذيون عند قمم الجبال . . لقد صفوا حساباتهم مع الدنيا . وجلسوا فوق فوق مع الذي تبقى عندهم من المشاعر الإنسانية ، وليس من هذه المشاعر : أن شيئاً ينقصهم . أو أنهم نادمون . . أنهم اختاروا المكان الذي يجعلهم يرون الدنيا صغيرة . . إنهم جلسوا فوق قمم الجبال . . فالجبال كلها

أقـدام لهم ، والوديـان أحذيـة . . والناس تـراب يتعلق بهذه الأحذية . . لقد هانت عليهم الـدنيا ، وتعـاظمت نفوسهم ، وتعملقت عقولهم . . فكيف لي ذلك ؟!

وأخيـراً شـاءت المصـادفـة أن تصحبني أمي إلى أحـد أقاربها . . أنه أستاذ في كليـة الزراعـة جاء حـديثاً من فـرنسا ويتحدث عن أجداده هناك وعظمتهم وكيف كانوا وكيف هم وكيف يـريد أن يكـون . . ورأيت في بيته الصغـير عجبـاً . . الكتب على الأرض . . تصور الأرض كلها كتب . . وظننت أنه لا يمشي على الأرض وإنما هو يمشي فوق الكتب . . والكتب على الجدران . . والكتب على السرير . . لم أنم تلك الليلة والليالي بعـدهـا . . وكنت أحلم وأحلم بـأنني أعيش في صنـدوق والصنـدوق من ورق الكتب . . والصنـدوق فـوق عمـود . . والعمود عبارة عن كتب بعضها فوق بعض . . وإنني كتاب . . ورق فوق ورق . . وإنني لا أقلب نفسي وإنما تجيء العصافير تقلبني صفحـة صفحـة . . ويجيء القمـر في الليـل ويقلب صفحاتي . . وفي اليوم التالي أجد نفسي كتاباً آخر . . وتقلبني أشعـة الشمس . . والنـاس يقفـون تحت العمـود ينتـظرون الحكمـة . . وتعلمت إنني لا أتكلم . . وإنمـا تتسـاقط مني الكلمات في صمت . . هم يسألون . . والإجابة تنـزل عليهم كلمة كلمة . . وتتخذ الكلمات شكل أوراق الشجر . . وشكل الثمار . . وشكل الزهور . . وأحياناً شكـل الزلط . . وأحيـاناً ساخنة وأحياناً باردة . .

وظـل قـريبي هـذا يتكلم ويتكلم وأنـا لا أفهم كلمـة

واحدة . . . ولكني مذهول بما رأيت لأول مرة . . وعندما عدت أحكي لرفاقي ما رأيت أقسمت لهم باللّه العظيم ثلاثاً أن قريبي هذا يأكل الورق . . أنه لا يأكل مثل الناس الأرز والبطاطس واللحم . . أبداً أنا رأيته يقطع الكتاب بالسكين ويأكله . . ولم يصـدقني الأطفـال . . وأقسمت لهم . وأخـذتهم إلى أمـي استحلفها ، ولكن أمي مدت يـدها إلى رأسي لـترى إن كنت محموماً . وخذلتني . فارتفعت درجة حرارتي . ولزمت الفراش . ولم أكن مريضاً . . وإنما مجنون بما رأيت وما تخيلت . . وبعد سنوات عرفت أن قريبي هذا كان يبحث في نظرية جديدة هي تحويل اللبن إلى زبدة دون أن يمر برحلة القشدة ، توفيراً للوقت وإستخراجاً لأكبر كمية من الزبدة . وكان من الصعب على عقلي أن يربط بين أن ينعزل عن الدنيا ويفرش الأرض بالكتب وعلاقة كل ذلك بالزبدة . . وقيل لي : أبداً . . أنه يدرس «سوسة» القمح أو الذرة وكيف يمكن مقاومتها . . وقيل : لا بل أنه يدرس أنواع الصراصير التي دخلت مصر من الصحراء في العشرين عاماً الأخيرة . .

ولكن جدتي كان لها رأي آخر : وهو أنه ذهب إلى فرنسا ليدرس ما هو الفرق بين عقول الخنازير وعقول الذين هم مثلي ومثل والدي وكل العاطلين الـذين يشتغلون بالقـراءة والكتب ويعيشون حياة الغجر والقرداتية !

* * *

ولما أسقطت من أذني ما كانت تقوله جدتي ويقوله الأطفال في مثل سني وفتحت عيني طويلاً وعميقاً على حياتي وجدتني انني

ولدت غجرياً وانني أردت ذلك ولا أزال . . فنحن كل يوم نتنقل وراء والدي من مكان كنا فيه غرباء إلى مكان أصبحنا فيه أكثر غربة . . فلا أصدقاء ولا جيران . . وإنما كل الناس يندهشون إذا رأونا ويندهشون إذا اختفينا . . وهذا الشعور بالغربة والغرابة والاغتراب والتغرب والاستغراب قد لازمني طفلاً وشاباً وشيخاً . . فالناس بعيدون . . ولا بد من جسور تقام بيننا . . ولا أكاد أبداً جسراً حتى أسمع نفخاً في البوق : أن احزموا أمتعتكم نحن مسافرون !

ولا أكاد أبداً في بناء جسر . . أو في إفراز خيوط العنكبوت . . أو رحيق النحل حتى ينفخ في الصور : أيها الناس الذين طال مقامكم في هذه البلاد ، اربطوا حقائبكم فليس عندنا متسع من الوقت !

فلا وقت للبقاء ، ولا وقت للرحيل . . إن حياتنا على عجل . . حتى البيت الذي كنا نسكنه كنت أتخيله دائماً سفينة مربوطة إلى الشاطىء . . وفي كل مرة أقول لأمي : يا ماما . . إن السرير يهتز ! فكانت تضع يدها على رأسي وتقول : أنت ساخن يا ولدي !

ولم أكن ساخناً ولا بارداً وإنما هو هذا الشعور بأن البيت خيمة على ظهر مركب مربوط إلى الشاطىء مجهول قادماً من شاطىء مجهول ، متجهاً إلى مجهول .

ولما قلت لأمي : لماذا ليس لنا ريش يا أمي . . لماذا لا نطير ؟!

ربتت بيدها على رأسي لتقول نفس العبارة : أنت محموم !

ومن هذه الغربة وفيها وبسببها وعلى امتدادها : اعتدت أن أنظر من بعيد . . وأن أرى . . وأن أتأمل . . وأن أتلمس نفسي . . وأن أعانقها . . أعانقني . . وأحتضنها «أحتضني» وأن أنفرد بها . . إنفرد بي . . وأنا أجدني في مواجهة كل الناس . . أنهم الأقوى . . وأنا الأضعف . . فأنا معهم وبهم ولهم وضدهم . . ولا حياة لي بغير ذلك . . تماماً مثل قارب يسبح على سطح الماء ضد الماء . . ولا حركة له إلا بالماء ولا يغرقه إلا الماء . . مثل طائر . . يطير بالهواء فوق الهواء ضد الهواء . . ولا يعيش في الهواء ولا يقتله إلا الهواء أيضاً . .

وفي هذه المسافة التي بيني وبين الناس . . وبين السفينة والشاطىء . . بين الخيمة على حدود القرية وبقية القرى ، بين سكان الأعمدة . . رهبان الصوامع . . علماء المعامل ، من كل ذلك تكونت أعماقي الفلسفية وتأكدت عزلتي وإحساسي بأنني ، وبأننا نحن المفكرين والعلماء والباحثين والزاهدين : غجر . أولاد غجر . . قبائل ترحل من مكان إلى مكان . . تعيش على حافة القرية والمدينة . . أنها لا تعيش مثل كل الناس . . بل أقل من ذلك كثيراً . . أقل دفئاً ، وأقل مرحاً ، وأقل سعادة . . ولكن تعوضنا عن دفء السعادة المرحة أننا عظماء . . وإننا منفردون بالعمق والأصالة وأن الدنيا لا تهزنا ولا تربطنا وتأسرنا . فهل نحن كذلك حقاً ؟ لسنا كذلك ولكن نتوهم ذلك ، ويسعدنا هذا الوهم !

* * *

ما الذي أتعس الشباب في كل زمان ؟ أن أباءهم لا يفهمون أنهم غجر . . وأنهم لا يريدون البيت ولا المدرسة . . أنهم لا يريدون إذا أكلوا أن يجلسوا ، وإذا جلسوا ألا يقوموا ، وإذا قاموا ألا يعودوا . . وأنهم يفضلون الخيام على السرير والسير على حافة القانون الشائكة ، بدلاً من النوم في حضن الأمن والأمان . أنهم كذلك : غجر . . ونحن ننسى إننا كنا كذلك . . فنحن نحسدهم على هذه الحرية . . على هذا التمرد . . على هذا الكفر بالتقاليد الحديدية ، والأعراف الاجتماعية . . وإننا حاقدون عليهم . . ولو عاد بنا الزمان إلى شبابنا ، ما فعلنا غير الذي يفعلون الآن ، وغير الذي كنا نفعل في مثل سنهم . .

فإذا رأيت شاباً منكوش الشعر ، ممزق الملابس ، يأكل ويمسح يديه في بنطلونه ، ثم يجلس على الأرض ويحلم بأن يكون زوجاً وأباً لثالث مرة وزوجاً لرابع مرة وهو بعد في العشرين فإنني أصرخ بأعلى صوتي وأقول : أهلي . . أهلي . . حبايبي . . ناسي . . دمي . . أبناء قبيلتي التي ليس لها إسم !

وأنا اليوم أسخر مما فعلته من ثلاثين عاماً . ولكن في ذلك الوقت كنت جاداً تماماً .

فعندما قرأت خبراً في الصحف الايطالية عن موت ملكة الغجر ، سافرت من القاهرة لأمشي في الجنازة . ودخت حتى اهتديت إليها . وكانت جنازة متواضعة وسألوني فقلت : غجري من مصر . . مندوب من غجر مصر لأقدم واجب العزاء .

وكان الغجر يهنئون أنفسهم كيف وصل إسم «ميمي» ملكة الغجر إلى بلاد الفراعنة . . وهمسوا في أذني قائلين : إذن كل الـذي سمعناه عن أن حتشبسـوت هي أولى ملكـات الغجـر صحيح ؟! فقلت : صحيحاً !

ولكن أعمق أعماقي يقول ؛ إنني واحد من هؤلاء . . تمنيت أن أكون وأتمنى أن أظل هكذا غجرياً متغجراً . . أحطم التقاليد وأتحطم معها . . تماماً كما يقول شاعرنا كامل الشناوي :

حطمتني مثلما حـطمتهـا . .
فهي مني وأنها منها شظايا . .
شظايا . .
شظاياي شظايانا !

وعندما انتقلت إلى الفلسفة الوجودية طالباً وداعياً وأستاذاً ، كان ذلك انتقالاً من غرفة الجلوس إلى غرفة المائدة . فمن العزلة إلى الفردية إلى الحرية إلى الايمان المطلق بأن الانسان حر . وأن حريته هي وجوده . وهو حر يختار كل ما يريد ويلتزم به . .

يختار لونه الأبيض أو الأسود . . بعض الممتازين من الزنوج تشرفوا بلونهم الأسود . . بسجنهم الأبدي . . فالزنوج الـذين تفوقوا على البيض هم الذين حطموا سجن اللون . . هم الذين قفزوا من فوق سور اللون . بل هم الذين فرشوا اللون الأسود بسـاطـاً أحمر يمشـون عليـه ليتسلمـوا ميـداليـاتهم الـذهبيـة فى الـدورات الأوليمبية . . فـاللون الأسـود لم يكـن هكذا سجنـا ولا عـائقـاً . . لقـد إختاروا اللـون شرفـاً لهم . . والانسـان يختـار دينـه ولغتـه ووظيفته . . ويختـار والـديـه . . يعترف بهم . .

يرفضهم . . يتشرف بهم ، أو يجدهم عاراً عليه . . فهو دائماً يختار . . والذي يختاره يلتزم به . . فالاختيار دائـم . . وملء الخـانات بـاستمرار . . كـل ذلك تـأكيد لحـريـة الأنسـان . . لوجوديته . . وهكذا انتقلت من الغجرية الوجدانية إلى الوجودية الفلسفية انتقالاً هادئاً . .

* * *

لو عندي ولد شاب لأدهشته حقاً ، حين أتسلل إلى غرفته وهـو نـائم وأسرق مـلابسـه من دولابـه وأرتـديهـا وأنـزل إلى الشارع . .

ولن يدهشني ما أعتاد هو عليه من أنه يرتدي مـلابسي : قمصـاني وكرفتـاتي وجواربي وأحـذيتي وينـزل هـو الآخـر إلى الشارع . . أنه يريد أن يدخل في هدومي وأن يملأها وأن يشعر بأنه أكبر . . بأنه رجل . . وأنه الذي يملأ فراغي بعد موتي . . وأنه رجل البيت . . هذا البيت أو أي بيت آخر . .

أما أنا فأرتدي ملابسه لأنني في مثـل سنه . وإنني عشت الشبـاب أطـول منـه . . «تفجرت» بـروحي أطـول وأكـثـر وأعمق . .

ولو التقينا نحن الإثنين أمام الباب لأسـعـدني أن أرى إبني كبيراً ، ولتعذب هو أن يرى والده هكذا صغيراً «مجنوناً» ــ إنني أفهم هذا الذي حـدث . . أما هـو فلا يستـطيع أن يفهم أن واحداً مثل أبيه يسرق ملابسه ! أرجو لا تتعجل في وصفي . . ولكني أرجو أن تعيد قراءة هذا المقال مع الرحمة والشفقة وعظيم

الإحترام لنوعية من الناس استطاعت أن تنسحب من طوفان الكذب وأن تعتصم بأعمق أعماق مشاعر أبناء الغجر !

قلبي على نصف مليون غجري ما الذي سيفعلونه سنة ١٩٩٢ ؟ ففي هذه السنة سوف تنفتح الحدود الأوروبية . . وسوف تنطلق مواكب الغجر من كل الدول الأوروبية . . ذهاباً وإياباً ؟! دولة واحدة أوروبية هي التي إحترمت الغجر . . إنها يوجوسلافيا . . أنه إعتبرتهم أقلية لها كل حقوق الأقلية : أن تتعلم وأن تعالج وأن تحتفظ بدينها وتقاليدها دون أن يتدخل أحد في شئونها . . حتى لغتهم هذه الرومانية هي خليط من الألمانية والعبرية والأردو . . أن كلمات كثيرة قد دخلت اللغة الغجرية في القرون الخمسة الماضية عندما بدأ تجوالهم من الهند حتى أسبانيا والمغرب العربي والمنصورة . . وهم جميعاً يؤدون نفس الأعمال الحقيرة : قراءة الطالع وبيع الأقراط والأساور والعقاقير وأحذية الخيول وسرقة الدجاج . . وليس صحيحاً أنهم يخطفون الأطفال ولا أنهم يأكلون لحوم البشر . لم أفعل ذلك مرة واحدة في حياتي وفكرت ولا وجدتني مضراً وإلا لكنت قد خطفت جدتي وأكلتها إبتداءً من لسانها حتى عينيها !

***

وهذه صورة الخطاب الذي بعثت به إلى مسيو جان ــ بيرليجوا رئيس مركز الأبحاث الغجرية في جامعة باريس والمهتم بحال الغجر ومستقبلهم في فرنسا بعد انفتاح كل حدود السوق الأوروبية المشتركة :

«سيدي العزيز . .

لست غجري الجسم وإن كنت غجري الروح مثل جاك

جان روسو وكل الشعراء الرومانسيين في أوروبا : شيلي وشيلر وبيرون ونوفالس وتيك ولامرتين وكامل الشناوي ومحمود حسن إسماعيل والهمشري وجليلة رضا وعنايات الزيات وجويس منصور وهي أسماء لا تعرفها ولكن أستطيع أن أعرفك بقدرها العظيم في بلادنا إذا أردت ـ إنني مستعد لأن أكون واحداً من جنود بني جنسي للخلاص أو لتحرير الغجر من الظلم الواقع عليهم . . أنهم يا سيدي كما تعرف كان في إستطاعتهم أن يذوبوا في أي شعب ، كما ذابت أقليات كثيرة إختارت السلامة فتورات في دماء الآخرين . . ولكن هذه الأقلية التائهة الضالة بإختيارها ، تستحق عظيم الإحترام . . لأنها إختارت تاريخها ، وقررت ضياعها ، وإرتضت عذابها . فقط أن تبقى معاً إختارت أن تعيش على عجلات . . تنزلق بين الحدود . . تتشعبط في العلامات الفاصلة بين دولة ودولة ولغة ولغة وجنس وجنس . . أنهم يا سيدي نموذج للعناد التاريخي . . أنهم نوع من البطولة لا تلقى تصفيقاً من أحد . . لأنهم الأبطال بلا جمهور . . أنهم كالأنبياء الذين يهانون في أوطانهم . . ولو فكر أستاذنا العظيم الفيلسوف الوجودي مارتين هيدجر والفيلسوف الوجودي سارتر والفيلسوف الوجودي جبريل مارسيل والفيلسوف الوجودي أونامونو ، لو فكروا لحظة واحدة في هؤلاء الذين يـطبقون نظرياتهم مهما كان العذاب ، لنهضوا من قبورهم تحية لهؤلاء المساكين قصار القامة سود الشعر كبار العيون غلاظ الحواجب والشوارب الذين يقفون ليلاً ونهاراً . . فهم لم يعرفوا إلا الهرب والبكاء . . انهم الذين إختاروا «الضياع» وطناً والعذاب ديناً ، والحرية عقاباً . .

هل تذكر سيادتك كيف أن فرنسا كلها سارت تطالب رئيس

الجمهورية بأن يعفو عن اللص الأديب جان جينيه الذي اختاره الفيلسوف سارتر نموذجاً للأديب الوجودي الذي أصر على أن يكون حراً مهما كان الثمن . . هؤلاء يا سيدي أنا أعرفهم . إنهم لا يسرقون عن خيانة ، ولا يخطفون عن جوع ، أنهم فقط يريدون أن يقولوا : نحن هنا . . إذكرونا . . إرحمونا . . اعترفوا بنا !

فإن وجدت هذا الذي أقـوله غـريباً ممن ليس غجـرياً ، فأرجو أن تعتبرني واحداً منهم . . ولست وحدي وإنما أنا أقف ضمن طـابور المفكـرين والفنـانـين والأدبـاء ومئـات مـلايـين الشباب : غجر دون أن يعرفوا . . ودون أن يشعروا بأنهم غرباء في بلادهم وبين الناس !

يا أي وزير للداخلية لا أتهمك
ولكني ـ فقط ـ أشاطرك الأحزان

دار حديث بيني وبين وزير الداخلية اللواء محمد عبد الحليم موسى . وقد أذيع وذهب الكلام هواء أو هباء . وأرى أن الذي قلت يستحق التسجيل . ليكون في متناول ملايين الشباب . هذا حق لهم . وواجبي . ولم أسأل الوزير رد القضاء ولا اللطف فيه . . فمصر أمنا وهمنا ، وشبابها أملنا ومستقبلنا ، وكلنا في زورق واحد . . وكلنا يريد النجاة وهي ممكنة . .

قلت للوزير أريد أن أفكر على مسمع منك . . فليس جديداً ما سوف أقول . ولكن من الضروري أن أجدد عرضه على كل وزير يجيء وقد قلت ذلك لثلاثة من قبلك . . وهم جميعاً أصدقاء !

أن مشلكة الشباب هي المشكلة . . وهي في غاية الحيوية والخطورة . ورغم ذلك فإننا لم نقرأ عن دراسة واحدة لحال الشباب في العاصمة أو الريف تقول لنا : ما هذا الغضب ؟ ما هذا السخط ؟ ما الذي ملأهم هكذا بالقرف والملل ؟ وسد نفوسهم عن الحياة ؟ وأخفى عن عيونهم مستقبلهم وبلدهم ؟

لا يمكن أن يكون سبب ذلك هو الدين . . أو هو الفهم المختلف للدين . . هم يفهمونه بشكل . . ونحن نفهمه بصورة أخرى . . ولأننا الأكبر والأقوى والأغلبية ، نرى أنهم على خطأ ونحن على صواب . . إذن فكل هؤلاء الشبان خارجون . . مارقون . . لماذا ؟ لأنهم مختلفون عنا ! لأن الإبن مختلف عن أبيه ، والبنت عن أمها . . مع أنه من الطبيعي أن يختلف جيل عن جيل . . فكما أن الأبناء مختلفون عن الآباء ، فقد كان الآباء أيضاً ، واختلفوا عن آبائهم . . وهذا الخلاف أو هذه الفجوة بين الأجيال كالفجوة بين موجات البحر . . بين واحدة وواحدة . . بين هبات النسيم . . بين الدرجات اللونية للأفق عند الغروب والشروق . . مثل المراحل المختلفة لنمو البذرة التي تصبح نبتة والنبتة التي تصبح شجيرة والشجيرة التي تصير شجرة والزهرة التي تصير ثمرة . . والثمرة التي تسقط على الأرض وتتحول إلى بذرة في الأرض لتبدأ دورتها في النمو من جديد . . وإلى الأبد . .

وإنما هناك مشاكل أخرى إقتصادية وإجتماعية وأخلاقية وسياسية . . فلا يمكن أن تقول لمن لا يجد مسكناً ويغضب أنه كافر ، وللذي جاء من شقة صغيرة ينام بها خمسة آخرون ويمشي على قدميه إلى الجامعة ويرى العمارات على النيل والسيارات التي يركبها زملاؤه ، لا يمكن أن تقول له : لا تغضب . . لا

تحسد . . لا تحقد . . لا تكفر . .

ثم هذا التلميذ الصغير الذي يسكن في حي بولاق

الشعبي ، أما مدرسته ففي حي الزمالك الأرستقراطي . . والمدرسة نفسها كانت قصراً من قصور الباشوات أصحاب الملايين . . هذا التلميذ الذي ينام ويأكل ويشرب في بيت خانق متهالك ، ثم يتعلم في قصر من القصور ، كيف لا يمسك مسماراً ويكشط النقوش الذهبية على الجدران وعلى الأبواب . . طبعاً هذا خطأ . ولكن كيف يقاوم الحقد والغل . . كيف يقاوم التمرد في داخله . . كيف لا يقول : (هم) فوق . . و (نحن) تحت . . كيف لا يشعر بالفارق الهائل كل يوم بينه وبين (هؤلاء) الناس الذين لا يعرفهم . . ويراهم في مسلسلات التليفزيون . . ثم كيف يتعمق عنده الشعور بأنه «تحت» . . بأنه «دون» الآخرين . . كيف لا يترسخ في أعماقه الشعور بالتحتية . . والدونية . . والشعور بالنقص ؟ ثم كيف لا يقاوم ذلك بالتعالي وأنه فوق ، ومن الواجب أن يكون فوق ، وأن يتعجل ذلك بالقوة أو بالعنف أو بالسطو ـ قليلون من يرون أنهم قادرون على تحقيق شيء من ذلك بالإجتهاد والشرف والأمانة !

إذن ليس هو الدين . . وإنما هناك أسباب أخرى قوية يحاول الشباب أن يجعل لها مذاقاً دينياً أو غطاء دينيناً أو تفسيراً أو تبريراً . . ومن الطبيعي أن يرى كل الأوضاع فاسدة . وأن الحل الوحيد هو : العدل . . الرحمة . . العودة إلى كتاب اللّه . . فاللّه لا يرضى بهذا الظلم . ولأنهم مؤمنون باللّه ، فهم مؤمنون بما يرضى اللّه !

فإذا آمن الشباب بذلك ووجدوا أن الحل هو أن يتمسكوا

بدينهم ، وأن يرفضوا الفساد والإنحلال والإنحراف ، فأي خطأ في هؤلاء الشبان ؟

وأن كان الإيمان يدعوهم إلى الصلاة والصوم والتمسك بجوهر الدين ومظهره أيضاً ، فأطالوا اللحى وإرتدوا الجلباب ، وتحجبت الفتاة ، ثم دعوا إلى ذلك بالحسنى ، فأين هو الخطأ في كل ذلك ؟

والسؤال هو : لماذا ترى كل أجهزة الدولة : الإذاعة والتليفزيون وكل الصحف والمجلات أن غضب الشباب هو سخط ديني فقط ؟ وعلاجه هو عشرات البرامج الدينية ؟

أنها جرعة دينية «كبيرة ومكثفة» . وكلها موجهة إلى الشباب . . وكلها لتأثيم الشباب وتجريمه . .

والمعنى : أن هناك إعتقاداً رسمياً بأن الذي يعانيه الشباب هو فهم خاطىء للدين . ولذلك يجب تصويب هذا الخطأ ليلاً ونهاراً .

والدين على عيني وعلى رأسي . ولكن من قال أن كل الذي ينقص الشباب هو الدين والصلاة والصوم والخوف من عذاب القبر فقط أن للشباب مشاكل أخرى : البيت والمواصلات والوظيفة والأسرة الجديدة والمرتب العاجز عن اللحاق بالغلاء الجنوني والأمل في مستقبل أفضل لأولاده .

ثم هذه الكارثة الأخلاقية والتربوية والسياسية والإجتماعية : ضياع القدوة والمثل الأعلى وإحترام كفاح الإنسان . ففي عشر سنوات مات ثلاثة من رؤساء مصر : محمد

نجيب وجمال عبد الناصر وأنورالسادات . . محمد نجيب مات ذليلاً مقهوراً . . وعبد الناصر مات مريضاً مكروهاً . . والسادات مات شهيداً . . وفي عشر سنوات وصفنا الثلاثة بالخيانة والعمالة وذبح الشعب وإراقة دمه في الحرب والسلام . . وقبل ذلك غنينا وطبلنا وزمرنا في الشوارع وفي البرلمان لهؤلاء الأبطال . . ورأيناهم أعظم من أنجبت مصر وأفريقيا والعرب . . وبعد ذلك تحولوا جميعاً في أعيننا إلى خونة . . محمد نجيب سوداني وأنور السادات أمه زنجية وعبد الناصر يمني يهودي (؟!) وكلام لا يقال ولا يصح ! ولكنه قيل وانتشر .

وتحير الشباب بين هذه التماثيل . . هذه الأصنام . . يعبدونها ؟ يرجمونها ؟ هل ماتوا من أجل مصر ؟ هل أماتوا مصر من أجلهم ؟ ثم كل أبطال مصر : عرابي جاهل خائن ؟ سعد زغلول مغامر سكير؟ ومصطفى كامل عثماني؟ والنحاس أراجوز؟ فإذا كان كل زعماء مصر من الخونة فمن هم المخلصون ؟ من هم الذين ثاروا على مصر ومن أجلها ؟ ومن الذي قفز بنا من العبودية إلى الحرية . ومن الهوان إلى الكرامة . . ومن ذل الإحتلال إلى عظمة النصر والإستقلال وإسترداد الأرض والسلام الذي هو أعظم إنجازات الحرب والسياسة ، والذي هو الآن أمل كل الشعوب العربية . .

نفرض أن التليفزيون يعلن كل يوم تغيير القبلة . . مرة إلى الشرق ومرة إلى الغرب . .

نفرض أن الفقهاء كل يوم يجددون الإجتهاد بأن الصبح ثلاث ركعات والمغرب خمس والعصر إثنتان . . فبالله عليك ما

إسم هذا الدين ؟ وما إسم هذا الإجتهاد ؟ ومن أين أتوا بهذه الفتاوى ؟ من القرآن ؟ من السنة ؟ أنها بلبلة عظمى !

نفرض أن واحداً جلس في أحد مدرجات كرة القدم ورأى في الملعب أربعين لاعباً . . ثلاثين في ناحية وعشرة في ناحية أخرى . . وثلاثة من الحكام وعشرة من مراقبي الخطوط وثلاث كرات . . وعندما بدأت المباراة فوجىء بأحد المتفرجين قد نزل من المنصة وشاط الكرة فدخلت الشبكة وأطلق أحد الحكام صفارته محتسباً هدفاً . فدار رأس هذا المتفرج وداخ وراح يتساءل : ما إسم هذه اللعبة ؟ أين نحن الآن ؟ . . حلم أو علم ؟

ألا ترى أنه على حق ؟!

أن هؤلاء الشبان لا يعرفون إسم هذه اللعبة السياسية ولا إسم هذا القانون الأخلاقي . . ولا إسم المرض الذي أصيبوا به والذي إختارت له الدولة علاجاً واحداً هو : الدين والفقهاء والجرعة المكثفة من الوعظ والإرشاد . .

هذا هو «التطرف الديني» ــ هذا السيل الذي يتدفق من عشرات البرامج وعشرات الصحف والمجلات .

فالتطرف الذي نواجهه هو تطرف الدولة . هذا هو التطرف الرسمي . . فليس بين الشبان بكل جماعاتهم وهيئاتهم من يملك إذاعة أو قناة تليفزيونية أو صحيفة . . أو مئات ألوف المساجد والميكروفونات !

أن التطرف الرسمي هو الذي خلق رد فعل عنيفاً عند

الشباب . فهم لا يملكون دفعاً لهذا الفيض الهائل من الكلام والإهانات والإتهامات .

وقلت للوزير أيضاً : أن هناك أسلوبين لمواجهة الساخطين على هذا المجتمع . . أما أن يعادوه . . وما أن يرتدوا عنه . . أي بالعدوان عليه أو الإنسحاب منه . . والعدوان والعنف معروف . . عدوان ديني ، أو عدوان سياسي . . فردي أو جماعي . . أو الإنسحاب من المجتمع عن طريق تعاطي المخدرات . . أو البحث عن طرق أخرى يدخلون بها السجن . . . بعيداً عن المجتمع . .

وقد عرفت أوروبا كل أنواع السخط والغضب . . فالشاب تظاهر في الشوارع يعترض . . ولجأ إلى العنف . . وإنسحب من المجتمع إلى كهوف الخمر والجنس وإلى الغابات أو هربوا من الخدمة العسكرية . . والشباب عندنا في مصر هربوا من أجهزة الأمن إلى المساجد . . أسلم وأطهر مكان وفي أيديهم كتاب الله . . وملابسهم ولحاهم وشواربهم سنة عن رسول الله . .

* * *

فكيف نواجه ذلك ؟

كيف نفهم ذلك ثم نواجهه ؟

لا بد أن ندرس وأن نفهم قبل أن نواجه الشبان . . ولكي نفهم أعمق وندرس أهدأ ، لا بد أن نقترب . ولكي نقترب لا بد أن تكون هناك مودة . . حوار بالحب والرحمة والصدق والأمل في أن نجد حلاً . . أو نتواصى بالحل القريب . . والحل

البعيد . . الحل الممكن والحل الصعب . . وأن نترك القلم لهم مرة يكتبون ومرة نكمل لهم العبارة . فيكون التشخيص معاً ، والعلاج معاً . . وتكون إرادة الشفاء إرادة مشتركة . فلا يكفي أن يريد الشباب ولا نريد ، ولا يكفي أن نصدق وهو يخاف . يجب أن تكون عندنا الأبوة والرحمة والأمانة .

فيكف تتولى وزارة الداخلية وحدها لا شريك لها تشخيص هذا «المرض» وكيف ترى وحدها أن العلاج بالعصا الغليظة وبالسجن والتخويف والترهيب ؟

طبيعي أن تقف كل أجهزة أمن الدولة ضد من يعتدي على الأمن . لا شك في ذلك . طبيعي أن تمنع أجهزة الأمن كل إنسان يريد أن يكرهني على أن أرى رأيه . وأن تتدخل لحمايتي من أي إنسان يرفع عصاه ويقول لي : أنت كافر وأنا وحدي المؤمن . وأنا لا بد أن أحاكمك . . فأنا القاضي ووكيل النيابة وشهود الإثبات . . وأنا السجن والسجان وأنا عزرائيل ورضوان والجنة وأنا النار . .

لا بد أن تحميني الدولة كلها لأن هذا إهدار لكرامتي وحريتي وعدوان غاشم ثم أن هذا كفر . فالدين صريح : لكم دينكم ولي دين . . وإدع إلى ربك بالموعظة الحسنة . . وإنك لن تهدي من أحببت ولكن اللّه يهدي من يشاء . . وكيف تكفر من قال : لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه .

هل أنا في حاجة إلى نظرية في الدين أو في السياسة لكي أغضب وألعن إذا تخرجت في الجامعة وظللت سنوات لا أجد عملاً ؟

هل أنا في حاجة إلى الشافعي أو أبي حنيفة إذا فتحت حنفية المياه فلم تنزل قطرة واحدة من الماء فلعنت كل أجهزة الدولة ؟ هل أنا في حاجة إلى من يعلمني كيف أقول : آه إذا سقطت من اوتوبيس ولم أجد العلاج المناسب في المستشفى ؟ هل أنا ينقصني الوعي لكـي أتمزق من داخلي عندما أجدني عاجزاً عن شراء لحمة أو دخول المسرح أو الذهاب إلى الشواطىء ؟ هل أنا في حاجة إلى من يعلمني كيف أحقد وأحسد عندما أقرأ في الصحف عن الذي كسب مليوناً والذي خسر عشرين والذي سرق مائة ولا يلقى الواحد منهم إلا عظيم الإحترام؟ فقط أريد أن يدلني أحد على معنى : أن الـرجل الأمـين جائـع حتى الموت ، وأن اللص سعيد حتى الموت ؟ وأن اللصـوص الصغار هم الـذين ينطبق عليهم القانون واللصوص الكبـار يحصلون على الـبراءة لأنهم قـادرون على إستئجـار المحامي الكبـير ، وقادرون عـلى إسكات الصحف وقادرون على إقامة الحفلات ، والناس ينسون للص الكبير كل سوءاته ، ولا ينسون لمن سرق رغيفاً ؟

وإذا كان الناجحون غشاشين ، والأثرياء لصوصاً ، والزعماء خونة ، وكل ماضي مصر سيئاً ، وحاضرها فاسداً ، ومستقبلها غامضاً ، فكيف يفكر الشباب وكيف تستوي حياتهم وكل شيء حولهم أعوج كيف ؟ كيف ؟!

* * *

أن أعظم مشكلة تواجه الشباب في مصر ليست أنهم فقط نصف المجتمع . . ولكن المصيبة أن النصف الآخر هو الحاكم وهو القادر على توجيه التهم . . وهذا النصف الآخر قد إختار

الشاشة والميكروفون والورق والقلم سلاحاً لا يغفل ولا ينام يصب غضبه على الشاب ويتهمه بأنه جاهل مجرم . .

هؤلاء الشباب صغار لا يملكون قوة ضد هذه التهم اليومية التي إستقرت في عيون الناس وأذانهم ، حتى أصبح الشباب يصدقون أنهم مجرمون وأنهم خونة . . وأنهم إذا حاولوا أن يثبتوا العكس ، فلن يصدقهم أحد . . فلم يعد الشبان قادرين على المقاومة . . لقد استسلموا . . وراحوا يتصرفون بالضبط كما تريد الدولة : إرادتهم أن يكونوا كذلك لكي تحاكمهم وتحاسبهم . . وتدفعهم إلى أن يخرجوا ويتظاهروا ويمسكوا الطوب والشوم والبنادق ــ لكي تراهم أوضح وتعاقبهم أشد . .

هناك نكتة تقول : أن شحاذاً رأى واحداً يطل من الدور العاشر فقال له : والنبي يا سعادة البيه ترمي لي إبرة . .

فقال له : ولكنك لن تراها ؟

فقال له : والنبي ترشقها في رغيف !

فالرغيف هو الذي جعله قادراً على رؤية الإبرة !
فالرغيف ليس طعاماً ولكنه «طعم» . . وكذلك أجهزة الدولة ترمي هذا الطعم للشباب حتى تراهم . . فإذا رأتهم حاسبتهم أو حبستهم ولم تحاسبهم .

قلت لوزير الداخلية : إنك في أسيوط كنت رئيس جمهورية عندك كل صلاحيات رئيس الوزراء والوزراء ، ولذلك نجحت مع الشباب هناك . . ولكن عندما جئت إلى القاهرة كنت وزيراً . . أحد الوزراء . . ألا ترى أن هذا منطق مقلوب . .

فعندما كنت في أسيوط تواجه مائة ألف شاب كانت لك كل السلطات ، وعندما جئت إلى القاهرة تواجه الملايين وتحمي عشرات الملايين كانت سلطاتك أقل ؟

فكيف تواجه وحدك هذه الملايين من الشباب . . أكثر المواطنين حساسية ، ولديهم كل مشاكل مصر ؟

إننا نواجه غلطة فادحة هي : أن تنفرد أجهزة الأمن بمعالجة الخلاف في الرأي مع ملايين الشباب الذين ليست مشكلتهم : الدين أو الفهم الخاص للدين . . وإنما مشكلتهم هي كل مشاكل مصر الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والتربوية والتعليمية والعلمية . . فهل عصا رجل الشرطة هي عصا موسى عليه السلام . . نضرب بها البحر فينشق طريقاً للنجاة . . هل هي عصا المايسترو إذا رفعها إنتظمت كل الآراء تغني وترقص حول الشباب . . و تغني لهم أو تحملهم على أجنحتها إلى بر الأمان والرخاء ؟!

نحن الذين علمنا هؤلاء الشباب : أنهم أحرار . . وأن من حق كل مواطن أن يقول دون خوف . . فلا يصح أن يخاف ما دام لا يعتدي على حريات الآخرين . .

وقلنا لهم : هذه هي الديموقراطية . . وهي حكمنا لأنفسنا . . وأن كلمة ديموس معناها الشعب . . وكلمة قراطيه معناها : الحكم . . أي حكم الشعب .

فلما بدأوا يعبرون عن الذي يشعرون به صرخنا فيهم : إمسكوا السفاحين . . القتلة . . أنهم يطالبون بالتيوقراطية ـ

أي حكم الدين . . رجال الدين . . التطرف . . الخوميني . . حسن البنا . . ابن تيميه !!

* * *

فلا يزال هناك وقت يا سيادة الوزير لكي نتحاور معهم . . ونتفاهم . . ونتفق أو نختلف . . ولكن في مودة . وفي رحمة . . وليس الحوار هو الحل . . ولكنه من الممكن أن يكون سبيلاً إلى الفهم . . وإلى إدراك أبعاد الحل الممكن . . والحل الصعب . . والحل المستحيل . . وكل شيء يجب أن يكون حواراً . . لقاء . . بلا خوف . .

انظروا إلى أوروبا الشرقية : تطايرت فيها أبواب السجون . . وذابت الأغلال . . وتدفقت الشعوب في مظاهرة نبيلة تعلن أنها فشلت في تجربتها الشيوعية . . وأنها كانت مخدوعة في العدل الموهوم ، والجنة الكاذبة . . وبلا عنف وبلا دم قد عدلت ــ مع الإحترام العظيم ــ عن أخطائها وخطاياها . . وقومت نفسها بنفسها . . وفي كل خطوة تخطوها جلست تتناقش . . الحاكم والمحكوم . . وحاكم اليوم ، هو محكوم الأمس . . إننا نرى في أوروبا الشرقية أروع إعتراف بالخطأ ، أعظم شعور بالندم ، أقوى تطبيق عرفه الإنسان لهذه العبارة البسيطة : الإعتراف بالحق فضيلة الأقوياء . .

ونحن أقوياء «نعرف الحق» ونفهم الفضيلة فلا يبقى إلا الإعتراف بذلك . . حاكماً ومحكوماً . وهناك متسع من الوقت ، ومتسع في الصدر أيضاً . .

سمعنا كثيراً وتعلمنا قليلاً
ولم نندم بعد ذلك :
كنا شباباً !

بؤساء هؤلاء الذين لم يروا ولم يسمعوا شخصاً عظيماً ولا جلسوا ولا تحدثوا ولا أكلوا ولا شربوا معه . . ولا شكروا اللّه على أنهم عاشوا في زمن العقاد وطه حسين والمازني وعبد الرحمن الرافعي الذين نحتفل بمرور مائة عامة على ميلادهم - ١٩٨٩ .

مئات الساعات جلستها مع الأستاذ عباس العقاد . . أسمع وأحلق في السماء . ولم أعرف إلا متأخراً جداً أنه كان يرتدي البيجاما التي هي من لون الطاقية والتي نراها في الأفلام فنضحك عليها . . ولا عرفت أنه كان يرتدي شبشباً بلا جورب . . وأن لون البيجاما لم يكن واضح الألوان ، ولا عرفت المكواة . . فمن الذي يجرؤ أو حتى يهتم بأن ينظر إلى ملابس العقاد . . ولا إلى أن أظافر قدميه ليست متساوية .

ما الذي لم يقله «الأستاذ» العقاد في الفلسفة والدين والأدب والفن والجغرافيا والتاريخ والفلك والحشرات والمناجم والبرلمان والمواخير وسيرة ابن هشام والجاحظ والمتنبي ونيتشه وشوبنهور وهتلر . . الدنيا كلها تدور حولنا ، وندوخ معه ومعها . . أما

لماذا كنا نتساند على الجدران ونحن خارجون من صالون العقاد ، فلأنها النشوة . . ولأننا عندما ذهبنا إلى الأستاذ كنا عطشى جياعاً . . ولكن عندما خرجنا كنا قد إمتلأنا حتى يخيل للواحد منا أن الأرض كلها تضيق عنه . . أنه قد أصبح أطول وأعرض وأنه يدق الأرض دقاً . . قال تعالى ﴿**إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا**﴾ . وكنا نؤمن بأننا نخرق الأرض ونبلغ الجبال والسحاب والنجوم طولاً وعرضاً . كنا شباباً وكان الأستاذ بطل أبطالنا ، وقدس أقداسنا ، وأعظم من في حياتنا .

ففي يوم سألت الأستاذ : يا أستاذ أن أستاذنا د . منصور باشا فهمي قد قال لنا اليوم أن الفليسوف ابن سينا هو أعظم من خلق اللّه . . أعظم من سقراط وأفلاطون وأرسطو . .

فتساءل العقاد : هو قال ذلك ؟

قلت : نعم .

قال : وهل ذكر لكم لماذا هو أعظم من كل هؤلاء ؟

قلت : لا !

قال : وهل سألتم لماذا هو أعظم من كل هؤلاء ؟

قلت : لم نسأل .

فتراجع العقاد في جلسته وقال ساخراً : ما دام الرجل قال لكم ذلك ، وما دمتم لم تسألوه ، إذن فهو أعظم مخلوقات اللّه جميعاً . . كيف تدرسون الفلسفة ولا تسألون ! وكيف تقنعون بما يقال لكم ، دون أن تعودوا إلى بيوتكم تفكرون وتتساءلون

وتتشككون ؟ ثم كيف يقول أستاذ الفلسفة لتلامذته كلاماً لا يقدم له دليلاً أو حجة . . بئس الأستاذ وبئس الطلبة !

هل انشقت الأرض تحتي ؟ هل هبطت إلى البدروم . . ثم إلى ما تحت الأرض ؟

هل نهض العقاد من مقعده وإتجه ناحيتي وسحبني من تحت الأرض إلى وجه الأرض وأجلسني إلى جواره . . هل قال كلاماً معناه : أنت لا تزال صغيراً يا مولانا . . ثم أن الأستاذ أصبح شيخاً ، فكلاكما لا يحسن تقدير الأمور . . أما هو فقد ضاعت عليه كل الفرص . . أما أنت فأمامك كل الفرص . . إسمع اليوم وإسأل غداً . . واسأل بعد غد . . هذه هي الفلسفة !

هذا هو الدرس الذي تعلمناه من الأستاذ العقاد . أن نسمع وأن نفكر . وأن نسأل وأن نفكر . وأن نقتنع بعد أن نفكر . . أهم من كل ذلك ألا نخاف من مثل هذا السؤال : من هو اللّه ؟ وكيف هو؟ ولماذا ؟ وما هو الخير وكيف ؟ والشر لماذا ؟ والجمال ما معناه ؟ والإنسان ما دوره ؟ ما رسالته . . ونحن إلى أين ؟

ولتكن الإجابة ما تكون المهم أن نصل إلى المعنى والهدف الذي نقدر عليه . . فلا نحن قادرون على أن نضع النجوم في جيوبنا ، والجبال في أصابعنا ، والبحار في أفواهنا ، والناس في آذاننا . ولا القضاء والقدر عربة يجرها حصان ونحن الذين نسوقها إلى حيث نريد . .

يقول الأستاذ : لا تشعر لحظة واحدة إنك تافه . . فقط

إنك مبتدىء . . لا تشعر لحظة واحدة إنك حقير . . أنت صغير فقط . . وأنت لست صغيراً ، أنت قصير العمر قصير اليد قصير النظر . . ولكن عظيم جبار بعقلك وطموحك . . وتساؤلاتك عن هذا الكون وخالق الكون ونهاية الكون . . أنت الكائن الوحيد الذي نزف دماً ، فأنه ينزف علامات إستفهام وتعجب .

يقول العقاد : ليس أعظم من الإنسان : وأعظم ما في الإنسان : العقل . وأعظم ما في العقل : الكبرياء !

فكيف لا نتساند على الجدران ، وكيف لا تضيق عنا الشوارع . . وكيف تمتد أيدينا إلى الطعام والشراب وقد أعطانا الأستاذ كل فيتامينات الحياة والحيوية والنبل والكبرياء . . وإننا خالدون !

* * *

من أي أنواع الحرير خلق اللّه طه حسين . . من أي أنواع النايلون خلق اللّه عبارات طه حسين . . من أي أنواع الدفء أبدع اللّه أحضان طه حسين . . أنه الأب الذي أعد لك حباً وحناناً ورقة لا تنتهي . . فمن أي جنات النعيم خلق اللّه النسيم يهب من شفتي طه حسين ؟ والنور من وجهه والراحة من معانيه . . سبحان اللّه . . هذا الذي حرمه اللّه النور ، هو مصدر النور ، هذا الذي حرمه اللّه من الإندفاع ، هو مصدر الإنطلاق . . هذا الذي يجلس على مقعد في ركن ، هو مصدر الآفاق الواسعة ، والوديان الشاسعة ، والغابات الوارفة . .

إذهب إليه وأقول : يا دكتور !

فيقول : نعم يا سيدي . .

أنا سيده ؟ تصور !

فماذا أقول للعظيم الذي يقول لي يا سيدي . . يقولها وكأنه يعنيها أو هو يعنيها فهو ابن الحضارة الفرنسية . ابن روسو وفولتير وديكارت وموليير . . وهو أيضاً أخو الشيخ محمد عبده وعاشق المعري وصديق المتنبي . . وهو تلميذ الجاحظ . . وهو الثائر عليهم جميعاً . فهو لا يسمح لأفكار أن تدخل رأسه إلا باذن . والاذن يجب أن يكون بإمضاء طه حسين ابن الأزهر والسوربون . . الثائر على الأزهر من أجل السوربون ، والثائر على السوربون من أجل جلال اللغة العربية وحكمة الشريعة وروعة السيرة .

في يوم ذهبت إلى أستاذنا العظيم طه حسين أقول : يا دكتور . . يا أستاذ يا عظيم . . بالأمس أنت قدمت لنا الأديب الفرنسي إندريه جيد قبل أن يلقي محاضرته فقلت : أن أندريه جيد عاش شاباً . ولا يزال . . أحب الشباب وأحبه الشباب . . وخسر الشباب وخسره الشباب . . ولكن لا يزال عنده القليل الذي يمكن أن يتعلمه الشباب . . يا أستاذ إنني لم أقرأ إلا القليل لأندريه جيد . . رواية «الباب الضيق» و«الأغذية الأرضية» و«المزيفون» و«إيزابل» وبعض «اليوميات» . . ولكن لم أقرأ له فلسفة أو دراسة شاملة تعرفني به . .

فقاطعني طه حسين في رقة ونعومة وأدب وأبوة وقال : الذي قرأت يا سيدي يكفيك جداً للحكم له أو عليه . . فإذا

كنت لم تلحظ في كل هذا الذي قرأت معنى الشباب عنده ، فهو لم يفلح في توضيح صورته لك . .

قلت : أو انني لم أفلح في فهم الرجل ؟

قال : ليس كذلك يا سيدي . . فالرجل متنوع الألوان والطرقات ومتغير الوجهات أيضاً . .

ثم ضحك طه حسين ليقول : والرجل ، إن كان رجلاً ، شاذ جنسياً يا سيدي . والرجل قد أفلح في أن يخفي عنك — وأنت شاب — كل عيوبه . . أن هذا نجاح له يستحق الإعجاب !

فقلت : إذن لا بد أن أعيد النظر إلى ما قال على ضوء ما سمعت . .

فظهر الغضب الرقيق على وجه طه حسين . . ليس الغضب . . وإنما هو عدم الرضا . . ليس عدم الرضا . . وإنما عدم الإرتياح إلى إنني تحولت بهذه السرعة . . فقال : إسمع يا سيدي هل لاحظت فيما قرأت له أنه كان يدخن . . وأنه كان يشرب . . وأنه كان يذهب إلى دورة المياه عشر مرات في كل مرة يجلس إلى الكتابة . . هل سمعته يقول : آه . . هل رأيته وهو يهرش جلده . . هل أحسست أنه توقف عن الكتابة ليشخط بأعلى صوته في الخدم في بيته . . كل ذلك كان يفعله ولكنه لم يجعلك تشعر بذلك . . فهل لو عرفت الآن أنه كان يفعل ذلك ، هل تكف عن قراءته . . هل تغمض عينيك عن روعة المعاني ، وجمال العبارة ، وعمق التناول .

وجاءت القهوة . .

فسألني طه حسين ضاحكاً : هل لو قلت لك أن هذا الفنجان لم يغسله الخادم . . وأن الماء الذي صنع منه القهوة لم يكن من الحنفية وإنما من حنفية الحديقة . . هاها . . هاها . .

ولم يشأ أن يكمل طه حسين عبارته . ولا أعطاني فرصة أن أفكر . . وكان طه حسين بأدبه وأبوته الصادقة أراد أن يعلق هذه الحكمة في عنقي : أنت يا سيدي يجب أن تعتمد على ذوقك . . فالذي يمتعك هو المتعة . . والذي يريحك هو الراحة . . والذي يطمئنك هو الصدق . . وبعد ذلك فكر وفكر وإستخرج من المعاني ما يعجبك . . هل فهمت يا سيدي ؟

ــ نعم يا سيدي وشكراً !

* * *

ذهبنا نسمع الأستاذ العقاد يقدم لعضوية مجمع اللغة العربية صديقه وتلميذه وحبيبه وحواريه إبراهيم عبد القادر المازني الشاعر الناقد الأديب الفيلسوف الساخر . . أعظم ساخر في الأدب المصري الحديث . .

ولا أذكر إنني رأيت الأستاذ المازني في صالون العقاد . ولا مرة . فقد كان يلتقي بالأستاذ العقاد في غير يوم الجمعة ــ وهو يوم الإجتماع الأسبوعي للعقاد وعشاقه ومحبيه وتلامذته ودراويشه والذين يحبون أن يروا ويسمعوا ولو مرة ثم لا يعودون . .

كان الأستاذ المازني أعرج . ولذلك كان لا يحب السير الطويل . ولكن لم أتلق به إلا في الشارع . . . لا في بيته ولا في

أي مقهى . وإنما يكون الموعد بيننا هكذا : تعرف ناصية سليمان باشا وشارع شواربي ؟

فأقول : نعم .

ويكون الرد : هناك الساعة التاسعة والربع . . أو يقول : تعرف مبنى الإذاعة في شارع الشريفين ؟

ــ نعم .

ــ تعرف شركة التأمينات الإيطالية ؟

ــ نعم .

ــ على الجانب الآخر من الشارع بالقرب من الصالون الأخضر . . وهو قريب من نفس المكان الذي إلتقينا به في المرة السابقة . .

والأستاذ المازني رجل قصير القامة . دقيق الملامح . ضعيف ولكنه سريع الكلام . وسريع التفكير . . سريع البديهة . . إذا وقف في مكانه لا يتحرك . . فقط عيناه تتحركان يميناً وشمالاً . . كأن يداً سحرية قد دقته في الأرض فإذا هو مسمار أو وتد . . ولكني كنت أحس أنه أحد أعمدة النور . . ملمسه الخارجي بارد كالحديد ناعم كالصلب ، ولكنه مضيء . . كله مضيء . .

وكنت أشير إليه أن يتحرك من مكانه لأن المارة يصطدمون به . . ولكن لم يكن يسمع ما أقول . . أو يسمعه ولكنه لا يريد أن يغير موقعه . . كأنه ساعة سويسرية قديمة تتحرك بالإهتزاز . . باهتزازه هو كلما صدمه أحد المشاة . . أو كأنه نائم

يريد أن يوقظه النـاس ، فيتعرض لهم حتى ييسر عليهم هـذه المهمة . .

أمـا الموضـوع الذي ذهبت لألتقي بـه مثل لقـاء سقراط بتلامذته في الشارع عـلى الرصيف وسط الضـوضاء وفي مهب الناس وعصف السيارات فهو : لماذا يا أستاذ أنت غير مريح . . أنت كثير الشك . . لا مانع . ولكنك لا تريح قارئك . . هل لأنـك لم تهتد إلى شيء . . أي شيء . . أو لأنـك إهتديت ولكنك ضنين على القارىء بما إهتديت إليـه . . أو إنك فقط تريد إيقاظ العقول النائمة . . فإذا صحت لترى جديداً ، فهذا هو الهدف . . ثم لا شأن لك بما يحدث للناس بعد ذلك . . المهم أن ينهضوا ويفكروا لأنفسهم . . هل هذا ما تقصده يا أستاذ . . ثم أنك هكذا على خلاف تام مع الأستاذ العقاد . . انه هو الذي يحيا ويتعذب ثم يقدم لنا ما إهتدى إليه على طبق من فضة . . في كلمات قصيرة . . ولكن هذه الكلمات مثل حبات اللؤلؤ في قاع المحيط . . فالعقاد هو الذي غطس وهو الذي تعب وهو الذي أضناه الغطس . . أما نحن فسادة جالسون على الأرائك ننظر إلى ما يقدم لنا الصياد الذي تعذب كثيراً .

ولكن المازني في هدوء بارد ، وبرودة هادئة قـال : ولكن العقاد لا يحب أن تشفق عليه هكذا . . إنه غواص بطبعه . . وهو مستعد أن يغوص في كل محيـطات الدنيـا من أجل لؤلؤة واحدة . . فإذا خرج بهذه اللؤلؤة وخطفها غراب من يده ، فإنه يده . . ولم يعطني فرصة لكي أعتـذر عن هذا الـذي قلت .

يظل العمر كله يبحث عن لؤلؤة أخرى ويبحث عن الغراب أيضاً . . هذه متعة العقاد وهذه مهمة صعبة أيضاً . . ولم يخطر على باله أنك جالس على عرش وأنه خادمك . . بل العقاد يرى أنه صاحب العرش العاقل المتفهم الجبار ، وإنك وكل الناس كسالى متسولون إغتصبتم مقاعدكم وسرقتم طعامكم ، ثم إنكم لم تدركوا عظمة الغوص وروعة الكنز !

فقلت : وأنت يا سيدي ؟

قال : أنا أضع نفسي قبل ذلك . . أنا فقط أريد من الناس أن ينهضوا وإذا نهضوا أن يتلفتوا . . مهم جداً أن يلتفت الإنسان . . فالذي لا يلتفت لا يعرف الجهات الأصلية الشرق والغرب والشمال والجنوب . . وفوق وتحت . . والسطح والأعماق . . أنا الأشواك في الفراش . . أنا وخز الضمير . . أنا الأجراس التي تنبه الغارق في النوم . . ولا تنس أن هذا ليس سهلاً . . ولا هو شيىء محبوب . . فالذي يهزك دائماً ، لا تحبه دائماً . . والذي يفتح عينيك بالقوة . . والذي يخطف اللقمة من فمك . . والذي كلما رآك ألقى على رأسك دلواً من الماء البارد ، ليس هو الصديق ولا الحبيب الذي تشتاق إليه وتبحث عنه . . والذي يقول لك دائماً أنت غافل كالذي يقول لك أنت مغفل !

قلت: تعرف يا أستاذ أنك شخص ممتع . . ولكن غير مريح . . ولا أظن من يلتقي بك مرة ، يحرص على المرة الثانية !

وكأنه قد سمع شيئاً مكرراً وكأن هذا التكرار دليل على أن الحديث قد إنتهى وأنه ليس عنده ما يقوله ، ولا عندي . فمد وأنهى اللقاء بقوله : هذا أيضاً تعلمته من الأستاذ العقاد . .

داعية اليقين ، أستاذ الشك في الفكر الحديث !

إذا لم تكن قد رأيت الأستاذ العقاد وهو يتكلم ، فأقرب الناس شبهاً إليه : الرئيس العراقي صدام حسين . . فهل لأنه كردي هو الآخر . . أو لأن الإعتداد بالنفس والثقة والكبرياء والعظمة هي التي تجعله يجلس معتدلاً مشدوداً . . يرفع يديه يشير إلى المعاني أن تدخل في الألفاظ المناسبة قبل أن تتجه إلى المستمعين . .

* * *

وكنا نحن ، دون أن ندري ، نقلد الأستاذ العقاد في طريقته في الكلام وأحياناً في سخريته . . وبعضنا كان يخجل من أن يقوم بدور القرد . . أو بدور الغراب الذي يقلد الطاووس . . ويوم قابلت الأستاذ عبد الرحمن الرافعي ، عميد المؤرخين المصريين قلت له : قرأت لك يا أستاذ ولم أعرف فلسفتك . . لا بد أن لك فلسفة . . فما هي يا أستاذ ؟

وخجلت من نفسي فقد سرقت هذا السؤال من الأستاذ العقاد . . فهذا سؤال لا يصح أن أوجهه بهذه الصورة واللهجة إلى رجل لطيف هادىء له كل ملامح الأطفال : الصفاء والطيبة والوجه المستدير المتورد اللامع . . وحاولت أن أخفف من وقع هذا السؤال فقلت : يا أستاذ لا تؤاخذني فأنا مدرس في الجامعة . . وقد أعتدت أن أوجه أسئلة إلى الطلبة . . ولأنني مدرس فلسفة فقد إعتدت أيضاً أن أوجه إلى نفسي أسئلة فأقول : يا واد . . يا حمار . . يا مغرور يا جاهل . . أقول ذلك لنفسي عندما أجدني واقفاً أمام حائط مسدود لا أعرف كيف أنفذ

منه . . أو كيف زحزحته أو هدمه . . أنها عادة سيئة . . ولذلك إعتذرت عن سوء الأدب في حضرة التاريخ والصدق . .

وكأنني لم أقل شيئاً . . وكأن كل الذي ذهبت إليه من المخاوف والمعاني لم يبلغ المؤرخ الكبير فقال : أنت تعرف إنني أحياناً كنت أقول لنفسي : يا راجل يا عبيط . . كيف لم تفهم ذلك من أول لحظة . . كيف إنخدعت بالألفاظ . . كيف إنخدعت بالوجوه الكاذبة . . ولذلك فعندما يصفني الناس بالعبط مثل أستاذك العقاد، فلا أغضب لأن هذا رأيي في نفسي . . وأخجل أن العقاد قد إستطاع أن يسمعني وأنا أشتم نفسي . . لقد كان سعد زغلول يقول لنفسه كلمات من مثل هذا النوع . . فقد سمعت أنه عندما كان يخسر في القمار يقول : أنت باشا حمار . . أو حمار باشا . . أو أكبر حمار بين الباشوات . . أو باشا الحمير كلها . . وكان الخطيب الأغريقي ديموستين عندما يلقي خطاباً بليغاً ولا يلقي صدى يقول : فعلاً أنا حمار لأنني لم أعرف بالضبط ما الذي يريده الناس . . حقاً حمار !

وتنقل الأستاذ الرافعي كثيراً وطويلاً بين الحمير في التاريخ . . ووجدتها مناسبة لأسأله : يا أستاذ أنت رجل ظريف لطيف وابن نكتة . . ولكن شيئاً من ذلك لا نجده في كتبك . فأنت متجهم . وأكاد ألمح العصا في يدك تنهال بها ضرباً على الزعماء والرؤساء والملوك وأكاد أراك تنزل بها فوق رؤوس قرائك أيضاً . . بينما مثل هذه النوادر من شأنها أن تنعش القارىء فيبقى معك طويلاً منتظراً من حين إلى حين أن تخفف عنه . . فإذا كان التاريخ هو مدرسة التجارب الإنسانية ، فلا بد من

فسحة بين الحصص . . ولا بد من إجازة قصيرة من المدرسة ومن المدرسين . .

فقال في تواضع وصدق : معك حق . . ولكني عندما أجلس لكتابة التاريخ فأنا قاض في محكمة الأحداث . . والقاضي مشغول بأن يحكم بالعدل بين الناس . لا يكلم أحداً . فكيف يكون هكذا حريصاً على العدل ويضحك . أن الضحك في المحكة هو حكم يسبق صدور الحكم . فكيف يصدره القاضي قبل الأوان . . قبل المداولة قبل المراجعة . . وخاصة إذا كان الحكم بالإعدام مثلاً . .

قلت : ولكنك لا تحكم بالأعدام دائماً يا سيدي . . بل أنت كنت قاضياً طوال الوقت . . بل أنت المحامي دائماً وأنت القاضي وأنت الشهود . فكثير من أحكامك تصدر هكذا دون أن تعرف حيثيات الحكم !

ولم يطق الأستاذ الرافعي أن يسمع هذه العبارة الأخيرة فقال : كأنني أستمع إلى العقاد . . شوف يا ولدي . . أنا لم أصدر حكماً دون حيثيات أبداً . . ربما كان عيبي هو أنني أتعب نفسي في البحث عن الحيثيات ثم أخفيها عن عين القاضي والشهود والمتهم . . وأصدر الحكم . ولكن إذا راجعني أحد ، فإنني أبرز هذه الحيثيات . أن مثلي الأعلى هو : العدل القائم على الحق القائم على الصدق القائم على الضمير . . واللّه على ما أقول شهيد . .

وأنت إذا جلست إلى عبد الرحمن الرافعي ، فلا بد أن تصدقه : وجهه . . صوته . . أداؤه . . أخلاصه . . عيناه

الصافيتان . . يداه الطفلتان . . النور يشع من وجنتيه .

قلت : لا أعرف إن كان هذا ما يقول العقاد . . ولكنك الأستاذ وأنا التلميذ . . وأنا أريد أن أتعلم منك درس الصبر والصدق والشجاعة وراحة الضمير . .

قال : لا شك في هذا الذي تقول . . وأنا لا أدعي أن طريقتي في كتابة التاريخ هي المثلى . . فهناك أساليب أخرى أنت تعرفها . . وكل شيخ له طريقة . . هذه الطريقة هي خلاصة تجاربه ، عصارة معاناته ، هدف حياته . . أن العقاد مؤرخ . . وطه حسين مؤرخ . . والحكيم مؤرخ . . وهيكل باشا مؤرخ . . والجبرتي مؤرخ . . ولكن ما أبعد الشقة بينهم جميعاً . . وما أبعدها بيني وبينهم . .

ثم سكت . وجاء الأوان لكي يعلق حكمة حياته في رقبتي ، وأنا حر في أن ألفها حول عنقي أو حول قلمي أو حول ضميري . قال : إسمع يا ولدي . .

وكان لرنين كلمة «يا ولدي» هذه أثر السحر في جسمي . . فتحولت إلى أذن كبيرة تجلس أمامه على الأرض وقال : كما تأكل ما يعجبك وتكتب ما يعجبك ، وتنام على الجانب الذي يريحك ، وتنظر إلى الدنيا من زاويتك ، فكذلك في كل حياتك : لا تفعل إلا ما يريحك جسمياً ونفسياً وعقلياً . . صحيح أن الراحة التامة هي الموت ، ولكن قبل الموت هناك درجات من الراحة . . انظر إلى البحر . . تجد أناساً يسبحون . . وأناساً يهتزون فوق الزوارق وترى طائرة فوق

السحاب . . بينما تجد صياداً في يده سنارة . . يقضي الساعات هادئاً ساكناً من أجل سمكة واحدة .

هذه السمكة تسعـده جداً رغم أنه قادر عـلى أن يشتري أضعافها من السوق دون تعب . . ولكن السمكة الواحدة عنده تساوي : الجلوس الهادىء في الهواء المنعش والإستغراق والصبر والمتعة والسعادة بعد ذلك ـ أنا هكذا . . وأنت حر بعد ذلك !

* * *

هل تحسدنا على هذه النعمة السابغة ، على هذه الهبة الغالية من اللّه : أن نعيش في عصر عـدد من العظماء . . نـراهم طويلاً ، ونسمعهم عميقاً ، ونتعلم منهم قليلاً ؟!

ولكننـا سمعنا ورأينـا وإستمتعنا وتعلمنـا . . وعندنـا من التاريخ ما نحكيه عن الذين صنعوا لنا وبنا التاريخ . .

ونصنعه نحن أيضاً بعدهم !

من حرية إلى قيد إلى حرية إلى قيد :
منتهى العذاب

الزواج : هو المصير الذي أعده المجتمع للمرأة . ولذلك فأكثر النساء متزوجات أو يردن الزواج أو معذبات به أو يحلمن بالخلاص منه !

وكان من الصعب أن تظل المرأة وحدها . بمفردها . تخرج بصعوبة وتدخل على أطراف أصابعها . . وإذا وضعت الأحمر والأبيض وجدت الغمز واللمز من أخواتها . . وإذا دق جرس التليفون وتلفتت سمعت من يقول ؛ أحم . . حم . .

أما الرجل فيستطيع أن يكون بمفرده .وأن يخرج ويـدخل ويتكلم ويـدخن ويسهر ويسكـر ويرد عـلى التليفـون ويـأخـذ التليفون إلى صدره وينام في غرفته . . وكل من في البيت يعرف . . ولكن لأنه رجل . . إبن رجل . فمن حقه أن يهمس وأن يلمس وأن يسهر . . وأن وأن . .

تسأل أية إمرأة أحبت وفشلت . . تزوجت وفشلت فتقول لك : أبداً توبة . . آخر مرة . . بلا رجاله بلا زفت . .وجع قلب . . وكل واحد فاكر نفسه أنه الأمبراطور . . أنه الجالس

على العرش . أنه الذي يأمر فأطيع . . ليـه . . هو إيـه وابن مـين ؟ . . إنها غلطتي . أنا الـذي جعلتـه يصـدق ذلـك . . حاولت أن أجعله كبيراً . . ولكنه تكبر وتجبر . . وأول من داس عليه أنا . . أما الآن فأنا أدخل ، أخرج . . أنام . . أصحو . . أحلم . . أهلوس . . أنا حرة تماماً . . وأنا سعيدة هكذا . . فأنا أظل وحدي حتى لو كانت دمعتي على خدي ، فإنني أفضل ألف مرة أن أكون وحدي على أن يشاركني في فراشي من لا أحب ! أن أختار الوحدة ، أفضل مليون مرة من أن أجد نفسي مرغمة على معايشة رجل لا أحب أنفاسه ولا رائحة عرقه ولا ملامح وجهه . . وهو يحاول أن يهرب من نظراتي . . يا ساتر . . تغور الرجالة كلها !

والرجل الذي فشل في حبه أو في زواجه يشعـر بالـوحدة والعزلة وأنه وحده ويقول لنفسه : لقـد خدعتني . . نعـومتها لمساتها . . بكاؤها . . كلماتها : وأنـا أحبك . . ومـا ليش في الدنيا غيرك . . والدنيا كانت خرابة ، وأنت الشمس والقمر . ولا أستـطيع أن أستغني عن الشمس والقمـر ولا أستغني عن نظرتك . لمستك . همستك . . أنفـاسك قـريبة من عنقي . . إنني بعد أن تخرج أشمشم في ملابسك . . وألقي قميصك حول رأسي . . وأرتـدي بيجامتـك وأدور بها في البيت . . وعنـدما أسمع صوت الباب أخلعها بسرعة . . كأن الناس يعرفون أنها ملابسك . . أو كأنني لا أريد أحداً أن يضبطني وأنا في أحضان بيجامتك وعرقك وعـطرك . . في منتهى النشوة والسعـادة . . صدقتها . . وكان من عادتي أن أحكي لزملائي عما تقوله لي . .

وأن الذي تقوله لم يرد في دواوين الشعر ولا في أغاني عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش ولا قاله شوقي ولا حتى عمر الخيام . . ويوم مرضت . . يا خرابي على الذي حدث في ذلك اليوم . . هي إرتدت كل ألوان الطيف . . ووضعت كل ألوان الشباب والجمال في وجهها . . عروس مرة أخرى . . وطول الوقت تقبل يدي . . وتتغزل في أصابعي . . وأظافري اللامعة . . وتقول لي : واحدة صاحبتي قالت لي . . لو كان لزوجي أظافر مثل أظافر زوجك لقطعتها ودرت بها في الشوراع . . أنها تحفة فنية أبدعها اللّه سبحانه وتعالى . . وبسرعة إنقلبت الأوضاع وراحت تقول لي ؛ أنت فاكر نفسك مين . . أنت واحد لا طلعت ولا نزلت . . وياما قالوا لي سيبك منه . . أنت عمياء . . أنظري أقرب . . بذمتك هل هذه شفايف . . بذمتك هل هذا أنف . . انظري إليه وهو يمشي أنه لا يمشي أنه يتساقط إلى الأمام . . وهل هذه أصابع . . أنها في حجم محشي الكرنب . . فعلاً الحب أعمى . . ماما هي التي قالت لي : يا بنتي وهوه حيجيب الأدب والرقة من أين . . أنت تعرفين أباه . . وتعرفين إسم اللّه عليها أمه . . لا منظر ولا شكل . . حتى صوته وهو يتكلم . . أنه مجموعة من الحشرات تحاول أن تخرج كلها في وقت واحد فتنحاش في حلقه . . أعوذ باللّه . . يا شيخة بلا قرف . . أنا زعلانة على عقلك . . فين عقلك وذكائك . . كل هذا راح في شربة ميه !

الآن فقط أنا حر . . حر على الآخر . . ولا أريد أن أرى أو أسمع أن في الدنيا كائناً حياً اسمه المرأة . . تغور . . ياه عندما

أفتح الشباك في الصباح ويدخل الهواء النقي . . وانظر وأرى في السرير لا أحد إلا التجويف الذي كنت راقداً عليه . . فأنا أمام الشباك وأنا على السرير . . وأنا في الغرفة . . صحيح . الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يعرفه إلا المرضى . . وكذلك الحرية تاج على رؤوس العزاب لا يعرفها إلا المتزوجون ياه . . الحمد لله !

* * *

في بعض المواقف المفاجئة يختلف الأزواج . لأن الموقف جاد . ولأن الموقف جاء بسرعة دون تمهيد . . مثلاً أن يتقرر فجأة أن يسافر الزوج إلى بلد أجنبي لكي يعمل . . يضاعف دخله . من أجل أن تكون عنده شقة وسيارة . . وأن يكون قادراً على إسعاد زوجته وأولاده . ألوف قد فعلوا ذلك . . وهو إحتمال قائم لكل شابين في مصر . . ولكن ما الذي يجعل هذا القرار أزمة . أزمة معناها : شيء حدث فجأة يحتاج إلى رد فعل سريع . . ويكون من نتائج هذا القرار إرتباك في العلاقات العائلية . . هذا الإرتباك يحتاج إلى وقفة لإعادة الترتيب . . وإقناع الزوجة بالوضع الجديد فتقبله دون إكراه من الزوج .

القرار يحتاج إلى حسم سريع . فالزوج لم يعرف كل التفاصيل إلا مؤخراً . وأنه يبذل محاولات كثيرة في كل الإتجاهات . ولكن لأن أحد المسافرين قد ماتت زوجته ، فقد جاء الدور عليه . .

وهذا الحوار بين الزوجين :

هي التي تبدأ عادة : قالوا لك لا بد أن تسافر بعد أسبوع ؟

هو : نعم .

هي : وتريدني أن أصدق ؟

هو : ولماذا أكذب ؟

هي : أنا عارفه . .

هو : وهل كذبت عليك في أي شيىء آخر . . هل كذبت عليك مرة واحدة ؟

هي ؛ يمكن هذه المرة . . ويمكن هذه هي بداية الكذب الكبير . . الناس تتغير . . وأنت في الأيام الأخيرة قد تغيرت جداً . . ولا بد أنك كنت تعرف ولكن أخفيت عني ذلك لتضعني أمام الأمر الواقع . . كما إشتريت الثلاجة ووضعتني أمام الأمر الواقع . .

هو : الثلاجة ؟ الثلاجة التي أهديتها إليك بمناسبة عيد زواجنا . . وجعلتها مفاجأة لك . . وهل إذا كان أمراً واقعاً ، يكون عيباً . . ألم تقولي يومها إنك كنت تريدين أن تطلبي مني ذلك لولا خوفك من أن يؤدي إلى لخبطة في الميزانية . . ألم تقولي إنها ألذ هدية . .

هي : خلاص . . خلاص . . ولكن أنا لاحظت أنك تغيرت في الأيام الأخيرة . .

هو : مثلاً . . لأنني دائم البحث عن عمل في أي بلد أجنبي . . ولن تكوني وحدك . . فقد كنت أعد لك مفاجأة

سعيدة . . فقد وجدت لك عملاً أيضاً في أحد المستشفيات .
وكنت أنتقل من سفارة إلى سفارة لكي أجد لك عقد عمل بمرتب أكبر . وفي مستشفىً يكون قريباً من مكان عملي . . كل ذلك أردت أن أجعله مفاجأة لك . .

هي : مفاجأة كل شيء أنت تعمله . . ولا يكون لي رأي . . أنت الذي تشتري وأنت الذي تقرر وأنا الذي أقبل ؟ . . طفلة أنا ؟ خادمة ؟ عبد من عبيدك ؟ وهل سأظل قاصراً طول عمري . . عند أبي قاصر ؟ . وعند زوجي قاصر ؟ .

هو : يعني أنا غلطان لأنني وفرت عليك كل هذا المجهود . . وأحاول أن أختار لك أحسن وظيفة وأكبر مرتب ؟

هي : وهل كان من المفروض أن أضع طفلاً على كتفي وطفلاً على صدري وواحد في يدي وألف وأدور على السفارات . . هل كنت تريدني أن أفعل ذلك كله ؟ إلى جانب شغل البيت . . وأين أنت في هذه الدنيا ؟

هو: واللّه أنا إحترت . . إن وفرت عليك التعب فأنا رجل متسلط وأنت من العبيد وإن تركتك تعملين ذلك فأنا أضيف إليك أعباء فوق أعبائك . . قولي لي ما هو المطلوب بالضبط ؟

هي : ولا تعرف ما هو المطلوب ؟ ما هو المطلوب من واحدة لا رأي لها ولا دور . . حتى في أخص خصوصياتها . . وهل من الممكن أن يكون لواحدة دكتورة عندها ثلاثة أولاد تركت الطب وتفرغت خدامة ممرضة في البيت هل من الممكن أن يكون لها أي رأي . . لا أعرف ما هو المطلوب . . المطلوب هو

الذي تقرره أنت . . فأنت ماذا تريد مني ؟ ما هو المطلوب أكثر من ذلك لكي أعمله ؟

هو : أنت عملتيها خناقة . . يا نهار أسود ومنيل . . أنا قلت حاجة يا ست أنت . .

هي : يا ست أنت ؟! أنا يقال لي يا ست أنت . . خدامة . . غسالة . . أم العيال . . أنا ست أنت ؟!

هو : آسف على العبارة التي أفلتت مني آسف !

هي : وعلى إيه الأسف فأنت لا تعرف من الذي تتكلم إليه . . الخدامة أو الغسالة . . أو واحدة من بتوعك بتوع زمان . . الدنيا تلخبطت ولم أعد أعرف لي رأساً من رجلين . . واللّه ماما معها حق عندما قالت لي : وعلى إيه التعليم ده كله . . إذا كنت في الآخر بقيت خدامة ؟!

هو : أيوه . . هيه الست ماما دخلت في الموضوع ؟ . إنها تريد أن تخربها وتقعد على كومها . . كوم مين ولا مين . . ما هي خربت بيت أختك وبيت أخيك . . وبيتها هي . . فعندها أكوام كثيرة يجب أن توزعها بالعدل على هذه الخرائب !

هي : طلقني !!

هو : . . .

* * *

وهذه المناقشات بين الأزواج مثل «دوار البحر» - أي مثل تلك الدوخة التي تصيب من يركب السفن وتهزه الأمواج فيشعر

بدوخة ورغبة من القيء . . ورغم هذه الدوخة وحرص الطرفين على عدم الإصابة بها ، فإنهما يعودان إليها وعندهما أمل في ألا يتكرر ما حدث . . وأن يصبر أحدهما على الآخر . . وأن يتفاديا الإنفعال والغضب . . فكفى ما حدث . . ولا داعي لوجع القلب ما دام الإثنان ليس في نيتيهما أن ينفصلا . ورغم كل الإحتياطيات وضبط الأعصاب فإن بحار الحديث والمناقشات تصيب الناس بالدوار والدوخة . . طلقني ! لا بعينك ! . طلقني !

ولكن لو خيرت المرأة بين أعلى منصب في الدنيا وبين الزواج لأختارت الزواج . . ولكن إذا تزوجت فإن أعلى منصب في الدولة سيكون في المقام الأول والزواج في المقام الثاني . .

وتظل المرأة تحلم بأن تكون أما . . وقبل أن تكون أماً ، تكون زوجة لرجل تحبه وتعجب به . . فإذا أصبحت أماً فإنها لم تعد زوجة . . أي أصبحت أماً أولاً . . وطفلها هو رجل حياتها . . أما زوجها فيجيء في المرتبة الثانية . . فإذا جاء طفل ثان فالزوج في المرتبة الثالثة . . فإذا جاء طفل ثالث فالزوج في المرتبة الرابعة . . ويظل الزوج يهبط حتى يتحتم عليه أن يحترم نفسه ويسكت ويقفل بابه . . . أو يجلس أمام الشقة بواباً للست وأولادها . لقد إنتهى دوره . . . فقد كان الوسيلة الوحيدة لأن تكون زوجته أماً . . مرة وإثنتين وثلاثاً وعليه أن يحمل عصاه ويرحل وإن كان عاجبه !

والمرأة لا تختلف عن الإناث في عالم الحشرات والحيوانات . . فزوجة الأسد إذا أنجبت صغاراً خافت على

صغارها من أن يأكلها الأب . . والأب يفعل ذلك لأن الأنثى قد إنصرفت عنه تماماً . . وفي عالم العناكب والعقارب نجد الأنثى تكسر رقبة الذكر عند اللقاح . . فهي في حاجة إلى لحم الزوج لصغارها . . ومن عجائب عالم الحشرات . . أن ذكور العناكب إذا إنكسرت رقبتها ، فإن الجسم يصاب بحالة تشنج . . هذا التشنج يساعد الحيوانات المنوية على الإستقرار في جسم الأنثى . . كأنه رغم أنه مات لا يزال يؤدي واجبه ، بينما تكون قد إبتلعت رأسه وتحاول هضمها لتترك للصغار طعاماً يجدونه عندما يخرجون للحياة !

وأكثر الرجال يتنبهون إلى أن دورهم التافه قد إنتهى ولكن في سن متأخرة جداً . وعندما يتمنى الرجال أن يعاودوا الحياة الحرة . . العزلة . . والوحدة . . وأن يتذكروا كيف كانت حياتهم هنيئة سعيدة قبل الزواج ، يكون قطار العمر قد قطع معظم الطريق ولم تبق إلا محطة أو محطتان . . ولذلك تكون الحياة قد هدت حيل الرجل وهدت حيل المرأة إلا لسانها . . ولذلك يفضل الرجل الحياة مع جليس السوء ، خيراً من الحياة بمفرده . .

ولكن الذين يقدرون على الوحدة والعزلة هم الشباب . . أي في مرحلة بناء أسرة تكون هي أنسب الفترات لقرار العودة إلى الحياة الوحيدة . . وهو قرار تتمناه المرأة ، ولكن لا تستطيع أن تنفذه . . أن أحداً لن يتركها في حالها . . ففي أعماق المرأة خوف من أن يهاجمها أحد . أو يعتدي عليها . . وعلى الرغم من أن المرأة تفعل كل شيء لكي تلفت الرجل . . عينيه وأذنيه . .

ويديه . . فأنها في نفس الوقت تخاف من ذلك . . فالمرأة تعرض نفسها . . مفاتنها ورشاقتها وأناقتها . تلسع وتتوجع وتتعرى وتستدرج . . ولكن بشرط أن تمتد الأيدي والعيون عبر «المأذون» . . فالمأذون هو مندوب المجتمع . . مندوب الأخلاق والدين . . ومن غير هذا المأذون تكون المرأة بضاعة سائبة . . مالاً سائباً . . والمثل يقول : المال السائب يغري بالسرقة !

ولذلك ما من إمرأة إلا تمنت أن تكون حرة . . هو أعظم آمالها . . بل أن ضيقها وقرفها من بيت أبيها . . وراحتها من أوامر الأخوة وتحذيرات الأم وتهديدات الأب ولذلك تتمنى أن تتحرر من كل ذلك بعقد الزواج . . أي الإنتقال من قيود تكرهها إلى قيود تحبها . . وتحس بأن قيود الزوج هي خيوط حريرية بالياسمين . . وبعد ذلك وبمرور الوقت تتحول إلى خيوط حرير . . ثم إلى سلاسل حديد . .

فليس أمامها إلا هذه القيود تحلم بها عقوداً حول رقبتها . . . وأساور في يديها . . وخواتم في أصابعها . . وحزاماً حول خصرها . . وبعد ذلك يؤدي الزواج الذي هو أعظم «كيمياء» في الدنيا إلى تحويل هذه المعادن الكريمة إلى معادن كريهة . . سلاسل حديد . . وجنازير وأغلال . .

والساقية تدور . . والرحاية تدور . . والفلك يدور والقلب يتقلب . . بين حرية يحلم بها . . إلى قيد يتمناه . . إلى حرية يحلم بها . . إلى قيد جديد يختاره . .

فالعذاب هو أن تكون وحدك . . والعذاب ألا تكون وحدك !

هؤلاء الأطفال يولدون
بالحب يعيشون بالكراهية

أولادنا : أكبادنا تمشي على الأرض !

* * *

نحن في زمن يقوم فيه الأطفال بتربية آبائهم !

* * *

«المنبه» هو الساعة التي يستخدمها الآباء ليستيقظوا من النوم ــ عندما لا يكون عندهم أطفال !

* * *

الأطفال وجع في الدماغ إذا إقتربوا ، ووجع في القلب إذا إبتعدوا !

* * *

الطفل اليتيم هو الذي لا يجد أبويه ، أو هو الذي يجدهما ولكن لا يشعر بهما !

* * *

الأطفال يحبون تحطيم الأشياء والقوانين أيضاً !

* * *

هناك نوعان من الأطفال : أطفال يعصون كل الأوامر . . وأطفال لا يقال لهم ماذا يفعلون !

* * *

الأطفال مثل الأسمنت المبلل ــ كل ما يقع عليه يترك أثراً عميقاً!

* * *

الأطفال ملائكة . . تقصر أجنحتهم عندما تطول أرجلهم !

* * *

يزيد عدد التوائم هذه الأيام ــ فهل لأن الطفل يخاف أن يواجه الدنيا وحيداً!

* * *

إذا أردت ألا يسمع الطفل ما تقول ، فتظاهر بأنك تتحدث إليه !

* * *

العائلات التي بها أطفال والعائلات التي ليس بها أطفال ــ تشعر بالأسف بعضها لبعض !

* * *

الذي يقول أنه ينام كالطفل ، لا يعرف كيف ينام الطفل !

* * *

العلم الحديث لا يستطيع أن يقضي على النوم نهائياً ــ ولكن الأطفال يستطيعون !

* * *

يقال أن راقصة الباليه إيزادوره دنكان قالت للأديب الساخر برنارد شو : تصور لو تزوجنا فكانت لنا طفلة ورثت جمال أمها وذكاء أبيها ـ ما أسعدها !

فقال لها برنارد شو : أو أخذت دمامة أبيها وغباوة أمها ـ فما أتعسها !

* * *

قال الزعيم السياسي الأغريقي ثيموتكلس : أن إبني هذا هو أقوى إنسان في العالم . . هو يحكم أمه وأمي تحكمني وأنا أحكم الشعب الأغريقي الذي يحكم العالم !

* * *

الأطفال هم ثروة الفقراء !

* * *

السعيد هو السعيد بأولاده ومعهم . . ومن غيرهم !

* * *

الطفل يرضع أمه صغيراً ، ويرضع أباه كبيراً !

* * *

ولكن الدينا تغيرت . . ولم تعد هذه المعاني إلا رموزاً متواضعة . . فأختلف معنى الأب والأم . . ومعنى هذه العلاقة التي تأتي بالأطفال . . والزوجة والصداقة . . والعلاقة الشرعية والعلاقة غير الشرعية . . ففي الدول الأوروبية والأمريكية لم يعد من الضروري أن تكون العلاقة شرعية ليكون من حق أية إمرأة أن يكون لها طفل . فلم يعد أحد يسأل الأم أن كانت تعرف أباً لهذا الطفل . وإنما الطفل إذا ولد فهو مواطن له كل

حقوق المواطنين . . فالطفل ليس مسئولاً عن العلاقة التي أتت به . . فهذا شأن أبيه وشأن أمه . .

ولذلك فهناك أمهات غير متزوجات لم يتزوجن قط . . ملايين الأمهات !

وكان المجتمع يفزع من ميلاد طفل من علاقة غير شرعية . . وكانت الأمهات تلقي بالطفل في لفافة من الورق . . تلقي به أمام باب المعبد . . أو في أسانسير لأنها لا تعرف أين تذهب به . . وتخشى أن يتهمها الناس بالفجور . . لقد تغيرت النظرة إلى الطفل وإلى أم الطفل . . ولذلك كان من المألوف أن تجد الأم الواحدة عندها ثلاثة أو أربعة أطفال كل واحد له إسمه . . لأنهم من عدة آباء . ويكونون أبيض وأسمر وأصفر وأسود . . وهما جميعاً من أم واحدة وعدة آباء . .

فالحياة الأوروبية والأمريكية تغيرت وتنوعت . . وأصبحت الحياة صعبة فليس من السهل أن تتزوج الفتاة . . وليس من الممكن أإذا تزوجت أن تحتفظ بالزوج أو يحتفظ بها الزوج . . ولذلك إختار الأزواج الإقامة معاً والإعتراف بالأطفال إذا جاءوا . . والإنفصال في أي وقت !

وإذا أنفصل الزوجان فأنهما يتفقان على من الذي يحتفظ بالأطفال . . وهناك ملايين الآباء يقومون بتربية الأولاد . . أما الأمهات فيهربن من الحياة معاً . سواء كانت شرعية أو غير شرعية . . وقد ظهر كثير من الأفلام تصور الرجل وهو يقوم بدور الأب والأم ويذهب بالأطفال إلى المدرسة وإلى السوق وإلى الملاعب . . وهو يخيط الملابس ويركب الزراير . ويرضع

الأطفال لبناً صناعياً . . ويجلس بأطفاله بين الأمهات اللاتي بلا أزواج . . ومعظم هذه الأفلام كانت للسخرية من هذا الوضع الإجتماعي الشاذ . . . ولكن هذا الوضع لم يعد شاذاً . وإنما هم الذين إختاروا أن يواجها صعوبات الحياة بدون خادمات . . أو مع مشاكل الخادمات اللاتي يعملن بالساعة . . ثم عجز الآباء عن دفع أجور الخادمات . . ومحاولة الشركات أن تخترع وسائل الأكل والشرب والنوم التي تجعل الأب يستغني عن مساعدة الخادمات أو الجارات . . ورأينا أفلاماً تعرض مثل هذه المشاكل في البيت الواحد . . أو في الحي الواحد فيتبادل الرجال والنساء حضانة الأطفال وتعليمهم والعناية بهم . .

وكلما حدثت إضطرابات إجتماعية أو أزمات إقتصادية ، كان الطفل هو الضحية الأولى لكل ما يصيب الوالدين من خلافات نفسية . . أو متاعب إقتصادية . .

* * *

وكانت حرب فيتنام أكبر مأساة واجهت الطفل الأسيوي . . فقد أسفرت هذه الحرب الطويلة المعقدة عن مئات الألوف من الأطفال «الضالين» . . فالأطفال يولدون في الغابات والمستنقعات وفي المخابىء وفي اللوريات . . وتصبح الأم عاجزة عن تربية الطفل ولذلك فهي تتركه كالكلاب الضالة . . يقوم بالإعتماد على نفسه . . يأكل من الأرض . . أو يتسول الطعام والشراب ــ هذا إذا عاش . . وقد عاش مئات الألوف من الأطفال حياة معذبة جائعة خائفة . . ضالة . . وكانت الشعوب الأسيوية تشحن هؤلاء الأطفال في الزوارق وتتركهم عند

الشواطىء . . وتلاحقهم المؤسسات الإنسانية فتدركهم قبل أن يموتوا أو تعرضهم للبيع أو لمن يريد أن يتبنى هؤلاء الأطفال — هؤلاء الأطفال هم مخلفات الحروب مخلفات الصراعات العسكرية أو العقائدية بين الكبار . . وبعد أن حسم الكبار مشاكلهم . . بقى هؤلاء الأطفال مشاكل حية ، لم نجد لها حلاً !

وتكررت نفس المأساة في رومانيا أخيراً فبعد إضطرابات الثورة على الرئيس شاوتشيسكو مات عشرات الألوف من الأمهات والآباء . . وبقى ألوف الأطفال بلا عائل . . لا أب ولا أم . . وإذا كان هناك أب أو أم ، فأنهم غير قادرين على حضانة الأطفال ورعايتهم . . ولذلك إنتقل الأطفال إلى الملاجىء في أوروبا الغربية . . أو إلى العائلات التي بلا أطفال !

* * *

وهناك المشكلة المزمنة للعائلات التي لم ترزق بالطفل . . هذه العائلات تعلن في الصحف وفي المجتمعات والكنائس عن حاجتها إلى طفل تتبناه وترعاه . . أو تشتريه بأي ثمن !

وتشكلت بسرعة جمعيات لشراء الأطفال من دول العالم الثالث . أي من العالم الفقير . . فالأسرة الأمريكية لها مطالب : تريد طفلاً أسمر . . أو أصفر . . أو أسود . . أو ذهبي الشعر أزرق العينين أشقر . . وتقوم الشركات الوسيطة بتدبير طلبات الزبائن . .

أما من التي تبيع طفلها الأشقر ؟

إنهن الطالبات في الجامعات الأمريكية والأوروبية . . فهناك

مئات الألوف من الشـابات قـد أنجبن أطفالاً لا يقـدرن على تربيتهم . . فتقوم هذه الشركات بالتعاقد مع الطالبة . . وتتعهد بدفع مبلغ من المال تحت الحساب . . لكي تصبح الطالبة قادرة على مواصلة الدراسة والغذاء الصحي أثناء الحمل . . ثم تتعاقد معها الشركة على دفع تكاليف الولادة والحضانة عدة شهور أو سنة حتى يصبح الطفل قادراً على تحمل الإنتقال من قارة إلى قارة أو دولة إلى دولة . .

بل أن الشركة تتفق مـع الأم على أن تـأتي بولـد من أب سويدي أو زنجي أو ياباني أو صيني . . لأن المطلوب هو طفل صيني أبيض . أو زنجي ملون . . وتقوم الأم بتدبير ذلك طبقاً للعقد المبرم بينها وبين هذه الشركة . .

أما إذا كانت الأم قد أنجبت توأمين ولدين أو بنتين . إرتفع السعر . .

ولا بد أن تتعهد الأم بالتنازل عن طفلها نهائياً ولا يحق لها أن تطالب به إذا مـا عرفت مكـانه . . أو عـرفت الأسرة التي تبنته . .

وهنـاك مئات الشركـات الأمريكيـة والأوروبية تتـاجر في الأطفال . . وهي شركات تخفف من عذاب الأم غير المتزوجة ، وتسعد الأم المتزوجة التي لم ترزق بالولد أو البنت !

* * *

وجـاءت حـرب الخليـج بمشكلة جـديـدة بـين الجنـود والضباط . . فقد كشفت الإحصائيات :

أن هنـاك ١٦ ألف أسرة لها عـائل واحـد . . رجـل أو إمرأة . . وأن هذا العائل قد ترك أولاده للأقارب أو الجيران . . أو في أحد الأقسام الداخلية للمدارس . .

وأن هنــاك ١٢٠٠٠ زوجــة وزوج مجنــدين في حــرب الخليج . . وأنهم قد تركوا الأطفال للأقارب والجيران !

وأن هناك أربعين حالة ولادة بعد أيام من بدء القتال . . وأن هذه الولادة قد أقلقت الجنود الآبـاء . . وأن هناك سبـع حالات وفاة لأطفال ولدوا بعد سفر آبائهم إلى الجبهة . . مما حطم أعصاب آبائهم !

وبسرعـة بـدأت المنـاقشـات بـين أعضـاء مجلس النـواب والشيوخ في أمريكا حول أطفال المجندين والمجندات . .

فقد تقدم أعضاء البرلمان الأمريكي بإقتراح بإعفاء الآبـاء الذين لا زوجات لهم ــ من الخدمة العسكرية للتفـرغ لتربيـة أولادهم .

وكذلك إعفاء الأمهات بلا أزواج ، لكي يتفرغن لـتربية الأطفال . .

أما إذا كان الرجل والمرأة مجندين فيجب أن يكتفي بواحد منهما في الجبهة . . ولكن وزارة الدفاع إعترضت إعتراضاً تاماً على ذلك . . لأن هذا الإقتراح يفرق بين الرجل والمرأة . . وأنها ترفض التمييز بين الجنسين . . أي التميز بين الرجل الذي له أولاد . . والرجل الذي ليس له أولاد . . والمـرأة التي عندهـا أطفال والتي بلا أطفال . . فالخدمة العسكرية واجب على كل

مواطن أياً كانت أوضاعه الإجتماعية . . غنياً أو فقيراً . . رجلاً أو إمرأة . . زوجاً أو غير متزوج . . عنده أو ليس عنده أولاد . .

وقالت وزارة الدفاع الأمريكية : أن الجندي يعلم أنه يمكن إستدعاؤه في أي وقت . . فهو الذي إختار أن يكون أباً أو تكون المجندة أماً !

وقد إنتهت حرب الخليج بعد ٢٠٩ أيام من إحتلال الكويت و٤٢ يوماً من الغارات الجوية ومائة ساعة من الحرب البرية . . ولكن المشكلة قائمة . . وهي قلق الأب والأم على الأطفال الذين تركوهم وراءهم . . في الجبهة الداخلية !

* * *

أنها مشكلة الطفل الوحيد . .

الذي لا يجد الأم إذا وجد الأب ، ولا يجد الأب إذا وجد الأم . . أو لا يجد الإثنين معاً . . أو الذي يعرف عندما يكبر أنهما باعاه . . وأنهما نقلاه من قارة إلى قارة . . وأنه مثل الحيوانات الأخرى . . أي أنه كائن حي ليست له جذور إجتماعية . . وليس له أصل إنساني . . وأنه لقيط . . وأن الشركات هي التي عينت له أباً وعينت له أماً . . وأن الناس جميعاً يعرفون من هو . . وأنه لذلك مختلف عن بقية خلق اللّه . . وأنه لا يكن إحتراماً أو حباً لأحد من الناس . . وأن هذه المرارة هي التي توقظ فيه كل رغبات الإنتقام . . من أي أحد . . من أي أب ومن أي أم . . الإنتقام من كل الناس الذين ظلموه وقهروه وحرموه من أبسط حقوق الكلاب التي ترضعها الأم وترعاها حتى تكبر وقد إمتلأت الأفلام بقصص

هؤلاء المظلومين الذين يتمنون أن يكونوا ظالمين . . هؤلاء الذين قست عليهم الظروف ، فتحفزوا وانتظروا لكي يكونوا هم أيضاً قساة على بقية الناس . !

ومعنى ذلك أن الطفل الذي لا يلقى البيئة الصحية من الأب والأم والأخوة . . والإحترام الإجتماعي لا بد أن ينحرف . ويكون إنحرافه عدائياً أي ضد المجتمع الذي حرمه من أن يكون واحداً مثل الآخرين . .

وفي التاريخ أحداث كثيرة عن الأطفال الذين تركتهم أمهاتهم وأحتضنتهم الحيوانات . . هناك الإنسان الذئب . . أي الذي إحتضنته ذئبة وراحت ترضعه . . حتى كبر هذا الطفل يمشي على أربع . . ويطلق أصواتاً كالذئاب . . وعندما أمكن إعتقال هذا الإنسان الذئب وجدوه لا يأكل إلا اللحوم . . ولا يمشي إلا على يديه ورجليه . . وعندما حاولوا أن يعلموه الكلام وأن يجعلوه يأكل ما يأكله البشر مات . .

وهناك الإنسان الغزال الذي ظهر في بلاد كثيرة . . في أوروبا وفي الأردن وفي الهند . . أنها نفس الحكاية لطفل ضل الطريق إلى بيته . . أو هجرته أمه أو ألقت به عند أطراف إحدى المدن فجاءت غزال وأرضعته وتولت رعايته . . فكان هذا الطفل ينطلق مع الغزلان يأكل ويشرب . . ولا يعرف كلمة واحدة من أية لغة . . فلما حاول الإنسان أن ينقذ هذا الإنسان الذي إتخذ سلوك الحيوانات مات . . لقد عاش الطفل حيواناً ، فلما حاولنا أن نعيده إلى الإنسانية كان الوقت قد فات . . ولم يعد

هذا الإنسان الغزال قادراً على أن يتكيف مع الظروف الجديدة عليه فمات !

والفيلسوف الأندلسي ابن طفيل له قصة يحكي فيها تطور الإحساس عند الإنسان ومروره من الحيوانية إلى الإنسانية إلى النظرة الفلسفية . . فكان له بطل في قصته التي أسمها «حي بن يقظان» . . إنه إنسان عاش مع الحيوان ولكنه الوحيد الذي أفلح في أن ينجو بإنسانيته من المراحل الحيوانية . .

ولكن المعنى : هو أن الإنسان إذا لم يجد الرعاية الإنسانية فإنه يتحول إلى الحيوانية . . فيكون ذئباً ويكون ثعلباً ويكون أفعى . . فهذه القسوة الإجتماعية توقظ فيه كل غرائز الحيوان لكي ينقض على الآخر بين . . .

وفي الخمسينات من هذا القرن لاحظ علماء أمريكا وأوروبا أن أسباب العنف عند الشباب مصدرها : أن الشباب قد وجدوا أنفسهم منعزلين تماماً عن الأب والأم . . فالأب مشغول عن الأولاد بالإستغراق في العمل . . أما الذي يقوم بدور الأب والأم فهم الخدم . . وكل هؤلاء الخدم من الزنوج . . أي أن الأب والأم يعملان ليلاً ونهاراً ليوفرا للأبناء حياة متحضرة : السيارة واللعبة الألكترونية والفيديو الأندية الرياضية . . وبعد ذلك في رعاية الخادمات الزنجيات . .

ولذلك إنحرف الأبناء .

وظهرت كل أشكال الخلل الإجتماعي والشذوذ النفسي والهوس الديني . . وكل مظاهر الهرب بالمخدرات أو بالنوم أو

الهرب من الخدمة العسكرية . . أو التعصب الديني . . والهروب إلى الحانات المظلمة . . أو الهرب من أمريكا كلها إلى الغابات في البرازيل وراء أنبياء مزيفين . . أو الإنتحار الجماعي . . أو الزواج الطفولي . . فقد تزوج الشبان دون العشرين بعضهم من بعض وكان لهم أطفال . . أي أصبح (الآباء الأطفال) يرعون أطفالاً آخرين . . أي أن الطفل الذي لم يلق رعاية من أبويه أصبح أباً ليربي أطفالاً آخرين !!

* * *

وفي مصر ظاهرة جديدة : أطفال يولدون لأمهات في الأربعين . . لماذا ؟

لأن الأم تريد أن تحتفظ بالشقة إذا حدث خلاف بينها وبين زوجها . . فالقانون يعطي الشقة للأم إذا كانت «حاضنة» . . ومعنى ذلك أن يولد أطفال يتامى . . أو أطفال يتولاهم أو لا يتولاهم آباء آخرون .

فهذا الطفل قد أتت به أمه ، لا لحاجتها للطفل . . أو حبها له . . وإنما ليكون «المبرر الوحيد» للإحتفاظ بالشقة . .

فهؤلاء أطفال من نوع جديد . . لم يردهم أحد . . ولكنه قانون الأحوال الشخصية . . وأزمة الإسكان . . وعدم الشعور بالأمان ورغبة الزوجة أن تعيش بعد وفاة زوجها مع أولادها . . أو وحدها أو مع زوج آخر . .

وظهور السيدات في الأندية والشوارع والأطفال الصغار في أيديهم موضة . . زينة . . دليل على أنها لا تزال شابة قادرة على

أن تكون أماً . . ولكن السبب الحقيقي لألـوف الأطفال هـو ألوف الشقق !

وسـوف يعـاني هؤلاء الأطفـال مشكلة أنهم جـاءوا متأخرين . . وأن أحداً لم يردهم حرصاً عليهم . . وإنما لأسباب أخرى . . فالطفل صفقـة . . أو هـو مقلب في الأب . . أو مصيدة لزوج آخر .

ولكنه إن لم يكن يتيماً فهو نصف يتيم . . ومثل هذا النوع من الأطفـال تنتظرهم أمهـات من الـذئـاب أو الكـلاب أو الغزلان . . ليكونوا وحوشاً تحت التمرين !

* * *

هذه هي خيوط المستقبـل في كثير من الـدول وبدرجـات مختلفة ــ المستقبل الذي يولد الآن على شكل أطفال يفتقـدون الأب والأم ولا يعرفون معنى الأسرة ولا معنى التعاون . .

هذه علامات المستقبل الذي ولدته الحياة الإجتماعية التي يغرق فيها الأب يومه بالعمل وليله بالفرجة على التليفزيون . . وكذلك الأم غارقة في عملها نهاراً وهاربـة من متاعب العمـل والبيت والأولاد ليلاً . .

وفي هذا الجو الغريب يولد أطفال ينقصهم أن يكونوا أطفالاً فيبحثون عن الأم أو الأم الذئبة . .

فالصراعات الإجتماعية والمحن الإقتصـادية والحـروب قد قتلت ملايين الرجال والنساء ولكنها قد شوهت ملايين الأطفال الذين سوف يصبحون رجالاً يرسمون بـالحديـد والنار والـدم شكل الحياة والرحمة والسعادة الإنسانية والسلام ؟!

ولماذا لا نموت حباً ؟!

قلت لك : على أي شيء نقسم ؟!

نقسم على ألا نلتقي . . فأراك وتسمعيني . . أقسمت أن ألمس على البعد يدك . وألمس على البعد عطرك ؟! ولكن كيف تقسم العين ألا ترى . . والقلب ألا يدق . . والريح ألا تهب والقمر ألا يضيء ؟!

وإذا أطبقت عيني ، فكيف لا أراك ؟!

وإذا وضعت يدي في أذني كيف لا أسمعك ؟!

وإذا أويت إلى فراشي وشددت غطائي كيف لا أحتويك ؟!

والليل إذا جاء ماذا أقول له . . والنهار إذا طلع كيف أواجهه . . ؟!

وتقولين : أنت قبل أن تعرفني كنت بلا حب ، وتستطيع أن تمضي بغيره . . ولا تسألين نفسك : كيف كنت بلا حب . . كيف كانت الدنيا تنقصها الدنيا . . كيف كان الوجود ينقصه الوجود . . كيف كانت الألفاظ زجاجات شفافة فارغة ينقصها المعنى . . والطريق كيف له بداية بغير نهاية . . كيف كانت كل

الطرق بلا أسماء . . وكيف البيوت بلا عناوين . . وكيف كانت الدنيا علامات استفهام وتعجب بلا إجابة . . فأنت الإجابة والعنوان والأسم والمعنى . .

أنت غلطانة يا سيدتي : أنت ترين أن الحب قيد وأنك الآن حرة بلا حب . . من علمك ذلك . . أن الحب هو الحرية : حرية العين أن ترى جميلاً ، والأذن أن تسمع سحراً ، والأصابع أن تلمس حريراً ، والسماء أن تنظم نجوماً ، والهواء أن يصبح نسيماً . .

من قال لك : إن القلب الذي لا يحب هو حر . . أنه ناقوس . . أنه طبلة . . أنه نبض . . أنه تدفق الدم من هنا وإنسيابه من هناك . . أن القلب مضخة من لحم ودم . أنه ليس قلباً . . أنني عرفت القلب العاشق كيف يتحول إلى موجات من النور تعلو وتهبط . . إلى خفقات . . إلى نداءات . . يوم جلسنا تحت المطر . . وقلت لك : لا تقولي قلبي . . وإنما قولي قلبنا . . فنحن فلذتان لقلب واحد . . نخفق معاً . . ننبض معاً . . نشهق معاً . . نتلهف معاً . .

وأنت قلت يومها : لماذا لا نموت معاً تحت المطر ؟

قلت : الموت كلمة لا يعرفها الحب . . المحبون لا يموتون . . وإنما يتحولون من دنيا إلى دنيا أخرى . . من صوت إلى ضوء . . ومن ضوء إلى خلود . . من قال إن روميو وجوليت ماتا . . من قال ليلي والمجنون ماتا . . أنهم جميعاً صورة أخرى . . شعر . . موسيقى . . لوحات . . تماثيل . . خرافات أبدية . . لقد رأيت صورتك على السحاب . . سمعتك صوتاً

موزعاً على كل الطيور . . كل واحد سعيد بنغمة . . أنني أرى ألوانك موزعة على الزهور . .

وقلت : والحيوانات أيضاً ؟

قلت : نعم : كل واحد يأخذ معنى . . الرشاقة لهذا والبساطة لذاك . . والحيوية . . والبهجة . .

قلت أنت : وأين كل هذا الذي تراه أيها المجنون ؟

قلت : المحبون مجانين . . لأن العقل يقدم إستقالته إذا رآهما معاً وإذا رآهما ليس معاً . . فما الذي يفعله عقلي وعقلك أمام قلب واحد أكبر . . يشملنا ويحتوي الدنيا . . ليس العقل أن ٢ + ٢ = ٤ ما معنى هذه المعادلة ؟ أننا لا نعرف من كل الأرقام إلا رقم واحد وليس بعد هذا الرقم ولا قبله أرقام أخرى . . بل رقم واحد كان في بدايتنا . . أما الآن فنحن في حالة الصفر . . في حالة إنعدام الأرقام والأوزان والمسافات والجهات والألوان . . أننا نصفان مشدودان . . مربوطان . . بل أنني أحس بأنني أصغر فأنا الربع أو العشر . . والباقي أنت . . بل أنني الصفر وأنت الواحد التام . . فأنا الصفر الذي يتمنى ألا يكون واحداً . . أو الواحد الذي يتمنى أن يكون صفراً . .

نحن لا نعرف الأرقام . . لا الساعات ولا الدقائق ولا الثواني في حسابنا . . ولا الليل ولا النهار ولا الغد ولا الأمس . . ولا البداية والنهاية . . فأنا لا أعرف لي بداية قبلك . . ولا أعرف لي نهاية بعدك . . دعيني لنفسي فأنني في حاجة إليها أسألها : ما هذا الذي جرى . . كيف جرى . . لا

أعرف كيف ولا متى ولماذا وماذا . . لا أعرف معنى السؤال . . ولا أعرف معنى الإجابة . . فأنا أصبحت السؤال وأصبحت الجواب . . هل أنا السؤال وأنت الجواب ؟ أبداً . . فالسؤال والجواب يتولدان معاً . . كما يولد النهر والنبع في لحظة واحدة وفي مكان واحد . . وكما تكون الشمس وضوؤها في آن واحد . . وكما تغرب الشمس علينا فإنها تشرق على آخرين . . فغروبها شروقها وشروقها غروبها . . هل تذكرين يوم إصرارك على أن نمشي في جنازة زميل لنا في الحب . .

وإندهشت أنت جداً كيف أنني لا أعترض ولا أنزعج ؟

أنا اعترض على ما تريدين . . أبداً . . أن صوتك يدوي في أعماقي ويهمس في أذني . . أنه صوتي قد خرج من شفتيك ليستقر في أذني . . ومن قال أن الموت يزعجني . . أننا لا نعرف الموت . . فليس للحب تاريخ . . فليست لنا شهادة ميلاد . . والذي يموت هو الذي يولد . . ونحن لم نولد فلا نموت . . وإنما نحن نتحول من حالة إلى حالة . . من بذرة إلى شجرة إلى شجرة لها زهرة والزهرة تصبح ثمرة فيها بذرة تتولد منها شجرة من جديد . . فاللهفة تصبح شهقة والشهقة تصبح ولعاً ، والولع شوقاً والشوق عشقاً والعشق حباً والحب حياة إلى الأبد . .

وعندما كنا نمشي وراء النعش . . والدموع باكية والوجوه شاحبة . . إلا نحن . . كأننا في زفاف عروسين . . فنحن نعرف إننا لا نموت . . وأن الذي أمامنا في نعش ليس إلا نوماً اضطرارياً وبعده صحوة أبدية . . فالخير لا يموت ، والصدق لا يموت . . والنقاء والصفاء لا يعرفان الأكفان . . لقد تعاهدنا أننا

إذا نمنا في هذا النعش ألا يأخذنا النوم بعيـداً . . فنصحو . . وقررنا أن نضع رسائلنا وصورنا تحت رؤوسنا كـما كان يفعـل أجدادنا الفراعنة . . وسوف تتحول الكلمات إلى طيور ترفرف بأجنحتها حولنا حتى نصحو . . فإذا صحونا وعزفناها وسرنا بها وعليها . . وساعتهـا أو يومهـا نشارك في السيمفـونية المقـدسة للحب الأبدي . .

أن أعظم العشاق في التـاريخ هم أجـدادنا من الفـراعنة الملوك . . فقـد كانـوا يدفنـون معهم كل طعـام وشراب وكل مجوهراتهم وملابسهم . . حتى إذا نهضوا من هذا النوم وجدوا كل شيء جاهزاً ليسأنفوا الحياة معاً . . حتى حيواناتهم جعلوها خالدة ، خداماً خـالدين . . ولكننـا لسنا ملوكـاً . . فنحن لا نهرب من غضب الناس وظلم الناس . . وإنما نحن نستعد لهذه الأيام المباركة المضيئة . . فعلى البركة مشينا وبالنور أهتـدينا ، وبالسلام تعاهدنا . . تكفينا أغانينا . . ورسائلنا . . ونـظراتنا هي وحدها التي تذكر العـين أن تستعيد مـا رأت . . وتلمس الأذن أن تسترد ما سمعت . . وأن تهز القلب فينبض ويدفـع الحياة فينا . . لكي نطير بعيداً . . كم تمنينا أن نكون وحدنا . . في نعش . . في قبر . . وكم أقسمنا . . وأشهدنا عيوننا وآذاننا وأيدينا على أن نلتقي وأن نتكامل وأن نستأنف .

قلت لك : هل ستذكرين كل شيء .

وقلت أنت : لن أذكر أي شيء .

ـ حتى أنا ؟

ـ أنت كل شيء !

ــ وأنت أيضاً . .

ــ أن الذي يذكر هو الذي قد نسي . . أن الذي يتذكر هو الذي أبتعد فلم يعد يرى أو يسمع أو يلمس أو يشتاق . . وأنا لم أنس . .

ــ ولا أنا . . .

كم مرة قلنا ذلك وحدنا . . كم مرة قلنا ذلك معاً . . كم مرة قلنا ذلك على مسمع منا . . كأنني لست هناك . . ولا أنت هناك . .

ألم تكن تجربة غريبة يوم أتفقنا على أن يحدث الواحد منا الآخر وهو يراه . . وأن نتكلم معاً في وقت واحد . . دون أن يؤدي ذلك إلى ارتباكنا وتداخل كلماتنا . .

كيف استطعنا أن يكلم الواحد منا الآخر في وقت واحد . . أنت تقولين وأنا أقول دون إرتباك منا . . أما المعنى فهو أنني عندما أتكلم عنك ، فأنا لا أراك . . ولا أسمعك وأنت أيضاً . . ونجحنا في ذاك مرات كثيرة . . أسعدنا ذلك ففي قدرة كل منا أن ينصرف إلى الآخر فلا يشغله عنه شيء . . لا أنت قادرة على أن تشغليني عنك . . ولا أنا قادر على أن أشغلك عني . . كيف ذلك ؟! هذه هي حالنا . . أعيش معك كأنك معي . . وأتكلم إليك كأنك بعيدة عني . . ويوم ذهبنا لزفاف صديقين . . هل تذكرين ما الذي أضحكنا في ذلك اليوم . . وقال عنا الناس . . طبعاً سعيدان . . فسوف يجيء دورهما قريباً . . ويوم قبلت العروسين : أنا قبلت العروس على خدها الأيسر فقط . . وأنت قبلت العروس على خدها الأيسر وفي

نفس المكان . . وقبلت العريس على خده الأيمن وجئت وقبلت قبلتي . . وكان ذلك عقداً مطبوعاً بزفافنا وزواجنا . . ويـومها كانت الموسيقى لنا وزفة العروسين والـورود . . والتورتـة . . واتفقنـا على أن يبعـد كل منـا عن الآخر . . وأحسسنـا بكل شيء . . لقد ابتعدنا عن عيون الناس . . حتى لا يرونا صورتين لشيء واحـد . . معنى واحـداً لشخصـين . . عـروسـين بـلا كوشة . . وبلا زفة . . هل تذكرين يوم ضبطتك تنـظرين إلى الأرض وتضحكين . . وأنا أيضاً . . لقد عرفت أنك قد تخيلت طفلنا الأول وأشرت إلى طفلنا الثاني وطلبت إليه أن يبحث عني . . ورأيت ذلك أنا أيضـاً . . أما الـذي أضحكني فأنت تعرفينه لأنه أضحكك أيضاً . . فالزفاف ليس تمثيلية دعوا إليها هذا العدد الهائل من المتفرجين . . أمـا الزفـاف الحقيقي فقد حدث قبل ذلك بين قلبـين وعقلين . . وكذلـك عقد الـزواج وكتب الكتاب وقراءة الفاتحة والخطوبة والنـظرة الأولى . . كل ذلك حدث منذ وقت طويل وبين أثنين فقط . . وهما العروسان وهما المتفرجون وهما المأذون أيضاً أما الذي نراه فهو التمثيل الذي يريده المجتمع . . هو الكتابة على الورق . . هو العقد هو السلاسل التي يضعها المجتمع من الحديد الملفوف بالحرير ،حتى إذا انفصل العروسان وتحطم الحب ، فلن يتشرد الأطفال . . ولا تبكي العروس حظها الأسود . . وضحكنا وضحكنا . . وظن الناس أننا سعداء بالأغاني والرقص . . وخصوصاً الأطفال وهم يرقصون . . أننا نضحك على الذي لا يعرفه الناس . . ويعرفه المحبون . . فقط المحبون . . فلا نهاية للحب . . لأن الحب يولد في قلبين ليموت معهما وبهما . . فإذا لم يكن حب . .

لم تكن حياة . . وإذا انفصلت عنك بالموت . . أنا مت قبلك ، فحياتي في خيالك . . وإذا أنت مت ، فحياتك هي حياتي . . وهناك نوعان من الحياة . . حياة الحب ثم استئنافها بعد الموت . . أما الذي لا يحب ، فليس له حياة لا هنا ولا هناك . . وإنما هو نبات يأكله حيوان ،أو حيوان تأكله الأرض ليخرج منه نبات . . إنه مثل عجلة تدور . . . عاليها يصبح سافلها وسافلها عاليها .

ويوم أمسكت يدك . . ونظرت وأطلت النظر . . وضحكت وأنت أيضاً ولم أقل شيئاً فأنت تعرفين ما الذي أقول . . وأعرف في أي شيء تفكرين . .

كانت على يدك ذرات من التراب . . هل هو التراب يريد أن يكون حبات من اللؤلؤ اللامع ، فارتمى على يدك . .

أو هي الزهور تحسدك تحقد عليك ، فتحولت مشاعرها السوداء تراباً على كفيك ؟ هل هو «طابع الحسن» على خدك عندما مسحته تكاثر بالملايين في أصابعك ؟ هل هو مثل تلك العلامات البيضاء التي يضعونها على الأبواب الزجاجية النقية حتى لا يصطدم بها أحد . . هل هي علامات ترشد عيني إلى يدك حتى لا أظن أنك بدأت تتحولين إلى شعاع ينضم إلى شعاعات القمر حولنا فلا أجدك ؟

لا أظن ذلك . . فقد اتفقنا أن نمضي معاً . . يدي في يدك . . رجلي إلى جوار رجلك . . عيناك عيناي ، وقلبي قلبك . .

سألتني : لماذا لا نموت ؟ لقد اكتمل لنا كل شيء . . لم نعد في حاجة إلى شيء . . إلى أحد . . لماذا لا نموت . . أننا ثمرة نضجت . . لماذا لا نسقط . . أننا معاً بدر اكتمل فلماذا لا نتناقص حتى نصير محاقاً ؟

قلت : أتمنى .

وأنت قلت : كأننا متنا . .

ـ هل تشعرين بيدي على يدك ؟

ـ أبداً .

ـ هل ترين عيني في عينك ؟

ـ أبداً .

ـ هل تسمعين ما أقول ؟

ـ أرى شفتيك ولا أسمعك . . وأنت ؟

ـ . . . .

ـ لماذا لا ترد . . وأنت ؟

ـ . . .

ـ يخص عليك . . هل مت وتركتني وحدي ؟

ماذا تقولين ؟

ـ . . .

ـ وأنت أيضاً لا تسمعين ؟

ـ . . .

ـ أذن أنت مت قبلي . . لم أحسب حساب هذه اللحظة !

ـ . . .

* * *

ليس الحب جنوناً ولكن من الجنون ألا نحب . . ليس من العقل أن يفقد الإنسان عقله . .

بل ليس من العقل ألا نفقده . . كما أنه ليس من العقل ألا نطبق العين التي ترى ، حتى لا ترى وتستريح من الضوء .

أن العين المرهقة تطبق جفنها لكي تكون قادرة على الرؤية بعد ذلك . . وكذلك الأذن . .

وكما أن إناساً يرسمون الوردة . . . وإناساً يشمونها . . وإناساً يعصرونها ويملأون بها الزجاجات .

وكما أن إناساً يضعون الزهور حول العروسين فإن آخرين يضعونها على قبور الموتى . .

وإناساً يسحقونها بأقدامهم . . يقتلون معها الذكرى الأليمة . . وأناساً يضعونها في طيات الكتب وفي أكفان الحرير . .

وأناساً يجعلونها من الأحجار الكريمة ويعلقونها على الصدور . . فكذلك الحب . .

ألا نحن . . فلم نعرف له إلا معنى واحداً هو أن نحب دون أن نعرف حروف الهجاء . . فالقلب لا يعرف القراءة والكتابة . . والقلب لا يرى ولا يسمع . . ولكن له قدرة على الرؤية والسمع . . فكل نقطة دم هي عينان وأذنان وشفتان . . فالقلب يرى بكل خلايانا . . لقد رأيتك بأذني هل تذكرين . . ؟ وسمعتك بعيني — هل تذكرين ؟

وأنت ألم تقولي : عندما تخيلتك سمعت صوتك ورأيت

عينيك وملأت الدنيا بك ، ولم أكن أعرفك بالعين والأذن . . رأيتك قبل أن أراك وسمعتك قبل أن أسمعك ، وزحفت إليك قبل أن أحبك . . لا تسألني كيف ؟ سل دمي . . سل دمك . . مجنونة ؟! لا يهمني ما تقول أو ما قلت . . أو ما يقول الناس . . أننا من عالم آخر . جئنا إلى هنا وإلى عالمنا الآخر نعود . . نحن أصدق الناس . . أننا غريبان في عالم مادي فاسد . . بل العالم هو الغريب عنا . . نحن رائدان من كوكب آخر . . أكثر سعادة ونقاء وصفاء . . نحن أقلية في هذه الدنيا . . ولكننا لسنا غريبين . . إنما كل هذا العالم هو الغريب عنا . . أننا أثنان من البشر في اكبر حديقة للحيوان . . الحيوانات أكثر عدداً . . ونحن أعظم قيمة ، الحيوانات هي «الكم» ونحن الأثنان نحن «الكيف» نحن حكمة اللّه . . والحيوانات حكمة الغريزة . . للحيوانات هذه الدنيا . . بل الحيوانات دون هذه الدنيا . . ونحن لنا الدنيا والآخرة . . فنحن فوق الدنيا . .

ما معنى مليون مليون دودة إذا قورنت بواحد منا ؟ ما قيمة مليون مليون نجمة في السماء إذا نظرت لها عيناك ؟ ما قصف الرعد ، وهدير الموج ، وعصف الريح ، وثورة البركان ، وفيضان الضوء إذا قورنت بهمسة الحب من شفتين . . ما تكالب الناس على الرغيف والعرش إذا قورنت بأحلامنا بأن نموت معاً ؟

أنني أحب قصة المجنون الذي ذهبوا إليه في أحد المستشفيات فوجوده عاقلاً في كلامه وحركته سألوه : ولماذا أنت هنا ؟ قال : أنا أقول أن الناس جميعاً مجانين . . وهم يقولون بل أنا وحدي : : ولما كانوا أكثر عدداً وأقوى ، سجنوني هنا . .

ولما كنت عاجزاً عن حشدهم هنا ، ظلوا هناك !

ولا نـراه مجنـونـاً . . بـل هم المجـانـين . . لأنهم عبيـد العقل . . عباد العقل . . أما نحن فعشاق الموت معاً . . والحياة معاً . . نضحي بالعقل من أجل القلب . . عروسان في زفة من صنعنـا . . ملكـان عـلى عـرش من تصميمنـا لشعب من المجانين . . ونحن العاقلان وحدنا . . مـاذا قال شـوقي لأبي الهول :

كان الرمال على جانبيك وبين يديك ذنوب البشر . .

وهـذه الذرات عـلى كفيـك هي لعنـات البشر . . حقـد البشر . . على أثنين من البشر أرتفع بهـمـا الحب فوق البشر !

موتي يا حبيبتي .
ـ مت يا حبيب !
ـ أنا مت فيك قبل أن أعرفك !
ـ وأنا مت فيك مرة أخرى بعد أن عرفتك . . يا مجنونة !
ـ وأنت يا عاقل !
ـ إهانة منك أقبلها . .
ـ فهل ظهرت لنا أنياب فجأة ؟
ـ الأنياب للحيوانات الجائعة الخائفة . . فما هذا ؟
ـ أحياناً أشعر بأنني حيوان . .
ـ وأنت أيضاً ؟
ـ أنني أرى نفسي أفعى تحت قدمي . . أدوسها . . أضغط عليها . . ومن حقي أن أنظر إلى قدمي وإلى شيء يتلوى تحتها .

ـ ولكني لا أجد شيئاً تحت قدمي . .

ـ فقدماك قدماي !

أنت نصحتني أن نبعـد . . وأنـا نصحتـك أيضـاً . . وأبتعدنا .

ـ فما الذي أبتعد منا عنا . . لا أنت ولا أنا . . وأنا عندما أتحرك بعيداً أجدك في عيني في أذني في ذراعي . . في خلاياي . .

فـما رأيك لـو جربنـا البعد مـرة أخرى لكي أزداد شـوقاً إليك ؟!

عبد الوهاب والعقاد ومختار :
صور تذكارية على جدران الطفولة !

التاريخ هو قصة كفاح الإنسان من أجل أن يحصل على مزيد من الحرية والطعام والحب والعلم والأمان والقوة . .

ولكن أجمل من التاريخ : قصة الذين صنعوا التاريخ . . حياة العظماء . . ففيها الإنسان نفسه وفيها ضعفه وقوته وخوفه وحبه . .

ويوم جاء ترتيبي الأول في الثانوية العامة سافرنا إلى القاهرة لكي نلتقي بوزير التعليم في ذلك الوقت نجيب الهلالي باشا . . وأعطاني شيكاً بخمسة وعشرين جنيهاً ــ وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت ــ ثم أعطاني كتاباً عنوانه «دزرائيلي» وهو الزعيم السياسي البريطاني اليهودي من تأليف الأديب الفرنسي اليهودي أندريه موروا ومن ترجمة حسن محمود . . فالكتاب من تأليف أبرع المؤلفين في كتابة السير الذاتية لأي إنسان . . فالتحليل جميل والعبارة سهلة . . قصص . . ونوادر ومفارقات وبلاغة وفصاحة . .

لقد أضفت إلى الأسماء الباهرة في حياتي الأدبية اسم أندريه

موروا . . وقرأت بعد ذلك كل ما كتب . . وأسعدني ذلك .

وأعطاني اندريه موروا المفتاح الذهبي الصغير لخزائن النفس البشرية . . وأعطاني خريطة أعماق العظماء : كيف أقترب منها وأتسلل وأبقى طويلاً قريباً أرى وأسمع وأتعجب وأحلل وأنقل ذلك للناس . .

وعندما انتقلت من المنصورة إلى مدينة القاهرة كنت أعلق صورتين على جدران الذاكرة : صورة محمد عبد الوهاب وصورة عباس محمود العقاد . .

أما عبد الوهاب فهو أعمق . فقد عشت في بيئة لها علاقة بالجمال الفني . . فوالدي كان شاعراً رقيقاً وكان يغني . . وكان يرتل القرآن وكان يؤذن للصلاة أيضاً .

وكان خالي جميل الصوت والصورة يأخذني معه في سهراته . وكنت أول ما أفعله بعد أن استمع إليه يغني وبعد أن اتناول طعام العشاء أن أنام . .

وكانت خالتي جميلة الصوت والصورة . .

وكنت أغني أنا أيضاً . . لنفسي ثم لغيري بعد ذلك . . ولأنني عشت في الريف طويلاً فقد استمعت إلى أصوات الفلاحين يغنون أثناء العمل . وكان للغناء معنى ودلالة نفسية واجتماعية . . وكانت أغاني الأفراح رمزية وجدت أن الغناء هو إعلان بحقوق الإنسان . . الفلاح العامل مكسور الظهر والجناح والنفس أيضاً . .

وأحياناً كنت أسمع الصوت الجميل وصوت الكرباج يمزقه . . ويفسده . . ولكن كنت أرى الفلاحات الجميلات

الصوت والوجه والقوام والعينين . وكان الغناء هو التعـويض اليومي عن ضعف الإنسان . . وهـو في نفس الوقت الأعـلاء النفسي لكل هوان الإنسان . .

واكتشفت محمد عبد الـوهاب وأنـا طفل في العـاشرة من عمري . . وقد أعجبني صوت أحد الفلاحين وهو يغني . وكان يغني في زريبة الخيول والأبقـار . . وكان والـدي وقتها يعمـل مأموراً لتفـاتيش عدلي بـاشا يكن ، رئيس الـوزراء . . وكنت أجلس إلى مقربة من هذا الفلاح الـذي يغني وسط المخلفات الحيوانية . . ثم كنت أطلب منـه أن يغني أمام البيت أو تحت الشجرة . ما أحلاها عيشة الفلاح . . ويـا جارة الـوادي . . وخايف أقول اللي في قلبي . . وأنا انطونيو وانطونيو أنا . . وأنت عزولي وزماني . . وأغنيات أخرى كثيرة لمحمد عبد الوهاب . . وفي ذلك الوقت حفظت القرآن الكريم . . وكنت أرتله وراء والدي . . وتخيلت في ذلك الوقت أنني اما أن أكون قارئاً للقرآن الكريم أو مطرباً . . فأنا أحب الكلام الجميل ــ والقرآن أجمل كلام ــ والصوت الجميل أيضاً . .

وفي مرحلة متأخرة اكتشفت الأستاذ عباس العقاد . . كنت أقرأ ما يكتبه في مجلة «الرسالة» وأندهش جداً كيف يستطيع أن ينقل القارىء من معنى إلى معنى . . وكيف أنه يجعلك تمشي في طريق مضمون الأول والآخـر . . وكيف يستخرج المعـاني من المعاني . . بوضوح وحجة قوية . كيف يفعل ذلك ؟ لا أعرف . وكنت أقرأ مقال العقاد مرة ومرة . . وأنا مفتون بهذا الرجل . . وكنت أتابع ما يكتبه . ولم أكن قد عرفت بعد أن للعقاد كتباً .

ثم قرأت كتابه «هذه الشجرة» وهو عن المرأة . وكانت نقطة تحول في حياتي النفسية والعقلية . . فلم أجد أبرع ولا أعظم ولا أعنف هجوماً على المرأة من هذا الكتاب . ثم عرفت بعد ذلك أنه لم يهاجم المرأة وإنما راح يغسل وجهها من الأصباغ ، ويحررها من ملابسها حتى جعلها قرداً عريان ليست له ميزة عن أي أحد . . ولكنه الجوع الإنساني والرغبة الحيوانية هي التي تجملها في عيني الإنسان وتجعلها كائناً آخر . مع أنها أشد الكائنات ضعفاً وتعقيداً وأنها من أولها لآخرها من صنع الرجل ، أوهام الرجل ورغبات الرجل . .

ولكن الذي أعجبني في محمد عبد الوهاب والعقاد شيء واحد . .

أن بينهما تشابهاً تاماً في صفات كثيرة .

فكلاهما رجل بليغ : أي عنده القدرة على أن يجعل المعنى الذي يريده يبلغ أي إنسان . . أي ينقل المعنى إليك . .

العقاد ينقل المعنى بوضوح . .

وعبد الوهاب ينقله بسهولة . .

العقاد ينقله بقوة . .

وعبد الوهاب ينقله بجمال . .

محمد عبد الوهاب هو صاحب العبارة السهلة الجميلة .

والعقاد هو صاحب العبارة الواضحة المقنعة .

فأعجبني عقل العقاد .

وأعجبتني عبارة محمد عبد الوهاب .

وتمنيت لـو أعـطيت عـقـل العـقـاد وأسلوب محـمـد عبد الوهاب .

ويوم قررت أن أكون مطرباً ــ وهي حادثة معروفة جداً ، رواها محمد عبد الوهاب في التليفزيـون ، اكتشفت أن السبب الحقيقي ليس هـو الطرب . . ولكن السبب الحقيقي هـو أنني أريـد أن أعـبر بسهـولـة محمـد عبـد الـوهـاب وجمـال محمـد عبد الوهاب . فأنا قد درست الفلسفة وتخصصت فيها ودرستها لألوف الطلبة في الجامعة . وأحسست في سن مبكرة أن الفلسفة صعبة . . ولكن كان أملي دائماً أن تكون لي قدرة أندريه موروا على التبسيط وقدرة محمد عبد الوهاب على الأداء الجميل ، وقوة العقاد على البناء المنطقي القوي . .

وأعجبني في محمد عبد الوهاب أنه رجل جاد . وأنه عاش محترماً في بيئـة ليست محترمـة . وأنه كـان متفتحاً عـلى الغرب والشرق . وأنه أخذ من هنا ومن هناك . أخذ ما يتفق مع الذوق المصري والشرقي . . ولكنه بقي دائماً مصرياً شرقياً صحيحاً . .

وأعجبني في العقاد أنه رجل صارم . وأنه يؤمن بأن المفكر هـو أعـظم الكـائنـات . وأن العقـل هـو أعـظم هبـات اللّه للإنسان . . وهو أعظم أدواته في الحياة الكريمة . وعاش العقاد ومات فقيراً . ولكنه كان يأخذ من طعامه ويشتري الكتب . . يشتري الكتاب الواحد بمائة جنيه يوم كان الجنيه الواحد ثروة ، لكي يتحقق من معلومـة صغيرة . . لقـد اشترى العقـاد كتباً بـالألوف عن حيـاة الشاعـر أبي نواس ليعـرف علاقتـه بأحـد الشعراء . . وهي معلومات تـافهة . . ولكن العقـاد رأى أنها

ضرورية جداً ليرسم شخصية الشاعر البديع ، والشاذ جنسياً . .

وكنا ــ نحن الذين تخصصنا في الفلسفة ونعرف منها أكثر مما يعرف العقاد ــ نداعبه بأن نقول له لقد قرأنا كذا وكذا من الكتب التي صدرت حديثاً . . فكان العقاد يضحك وينادي خادمه ويطلب منه أن يأتي بالكتب الملقاة على الأرض إلى جانب سريره . . وتكون هذه كتباً جديدة علينا وأن كانت في صميم تخصصنا !

وكان العقاد يأخذ نفسه بمنتهى القسوة . يقرأ بنظام . ويأكل بنظام ويتمشى في الشارع بنظام وفي ساعة محددة . جاء رجل من الملايو يحمل إليه بشرى : ألوف الجنيهات مقابل ترجمة كتبه عن عظماء الإسلام . ولكن الرجل جاء متأخراً خمس دقائق عن الموعد المتفق عليه . فغضب العقاد . وعندما جاء الرجل يعتذر عن تأخره لأنه لا يعرف بيت العقاد ولأن علامات المرور قد عطلته . . لم يقبل العقاد العذر . . ولما حاول الاعتذار إليه في التليفون قال له العقاد : كيف تشغل العقاد عن رياضته اليومية ، ثم يتقبل منك هذا العذر !

أما الرياضة اليومية فهي المشي في شوارع مصر الجديدة . وكان من الممكن أن يقبل العقاد هذا العذر ولكن العقاد الرجل قد رتب حياته . . الأكل والشرب والنوم والقراءة والرياضة . وعلى الناس أن يقبلوها وأن يحترموها . ولا يقبل العقاد مناقشة أو مساومة في ذلك !

وكذلك محمد عبد الوهاب يأكل أنواعاً خاصة من الطعام .

يرى أنها أنسب لصحته . . لمعدته بصفة خاصة . . ثم لا يشرب الماء المثلج . ويخاف من الطعام الساخن . . فالماء البارد يفسد حنجرته وحباله الصوتية . . والطعام الساخن يجعله يعرق . وإذا عرق خاف من الإصابة بالبرد . . والعقاد ومحمد عبد الوهاب ينامان في الفراش بطريقة واحدة . . أن النظر إليهما يشبه النظر إلى جثة فرعون ميت . . فكلاهما يلف نفسه بالأغطية الثقيلة حتى لا يتعرض للهواء . .

وأرتبطت بالأثنين من الناحية الصحية . فأنا أخاف من البرد . واتغطى في عز الصيف باللحاف والبطانية والنوافذ مغلقة . . وإذا خرجت ساقي من تحت العطاء فإنني أعطس . . ولا أذكر أنني نمت في غرفة مكيفة . . ولا أذكر أنني أخذت دشاً بماء بارد صيفاً أو شتاء . . وإذا عطست انطلقت بسرعة أبحث عن دواء . . وإذا كان أحد مزكوماً فإنني أبتعد عنه تماماً . . لا آراه ولا أستطيع . . وكذلك محمد عبد الوهاب . . فمنديله على أنفه . . وإذا ذهب ليتناول العشاء في أي بيت ، فإنه يأخذ معه ملابس داخلية ليغيرها إذا أصيب بالعرق . .

فكان محمد عبد الوهاب هو طبيبي في الإصابة بالبرد ، أو حتى لا أصاب بالبرد . وعن طريق محمد عبد الوهاب ، الذي أصبح صديقي أكثر من أربعين عاماً ، عرفت كل أدوية البرد الجديدة والجديدة جداً . . فكان يطلبني من باريس ويقول لي : أتيت لك بآخر اختراع فرنسي . . أو سويسري . . وسوف أبعثه اليك الأسبوع القادم !

ولا يهم أن يكون ذلك في شهر يوليو ، فأنا أصاب بالزكام

في جميع فصول السنة . . هل لأن الدنيا برد ، أو لأنني أخاف البرد وأتوهم الإصابة به . .

وكان طبيبي في علاج المصران الغليظ هو الأستاذ العقاد . . فالعقاد لأنه عصبي ولأنه يعمل كثيراً ، فهو مصاب بالمصران العصبي . . وإذا جلس فإنه يضع يده دائماً فوق مصرانه . .

وكان محمد عبد الوهاب هو طبيب المصابين بالمصران الغليظ . . وكان في تشخيصه وعلاجه أوضح من الأستاذ العقاد . . كان يقول : ماذا تأكل وماذا لا تأكل وماذا تشرب وماذا لا تشرب . . الشاي لا مانع القهوة ممنوعة . . الأيس كريم ممنوع الشيكولاته لا مانع . . البطاطس والكوسة لا مانع ولكن الملوخية والبامية والقلقاس والسبانخ ممنوعة بتاتاً . .

وكنت أذهب للطبيب العظيم أنور المفتي أشكو وهو يشخص ويكتب الدواء . وأذهب بالروشتة إلى محمد عبد الوهاب فكان يقول لي : سيبك منه !

ثم يصف لي دواء آخر . .

وكنت أقول للعقاد : هذه روشتة أنور المفتي .

فكان العقاد لا ينظر إليها ، ويقول : أنا عندي التجربة التي هي أساس كل النظريات الطبية . .

فالطبيب يجب أن يستمع إلى ما أقول أنا . . وليس أن استمع أنا إلى ما يقول . . وتجربتي تقول : إن الإنسان إذا أكل وهو مرهق ، فالأكل لا يهضم . . وإذا أكل بسرعة فالطعام لا يهضم . . وإذا أكل وهو قرفان وهو سرحان ، فمصير هذه

الأطعمة أن تنفخ المصران الغليظ ، فإذا انتفخ فإنه يوجعك ويخنق أنفاسك ويصيبك بالأمساك ، والأمساك يصيبك بالصداع ، والصداع يجعلك زائغ البصر ـ هذا هو الأصل في كل تشخيص وعلاج !

ووجدت أن عبد الوهاب والعقاد لا يحبان المرأة . .

فالمرأة تحب عبد الوهاب . ولكنه يرى أنها ملهمة فقط . . ولكنها لا تساوي شيئاً بعد ذلك . . ويرى أنها معطلة عن الإبداع . .

والعقاد علاقاته بالنساء محدودة . فلم يعرف في حياته إلا عدداً قليلاً . والعدد القليل من النساء كان أسوأ نموذج للمرأة . فلم يكن بينهن واحدة باهرة أو واحدة ذات عقلية تثير العقاد . . وربما أحبت هي العقاد . . ولكن كل عظماء العصر أحبوا «مي زيادة» أو توهموا ذلك . . ولكنها تظاهرت بحب الجميع ولم تحب إلا رجلاً واحداً في لبنان هو خليل جبران . . وماتت مجنونة . . فقد تعرضت لضغوط نفسية وعقلية واجتماعية أكبر من احتمالها . .

ولم ينفرد العقاد بمي زيادة . . وإنما كانت بينهما رسائل فيها الكثير من الحرص والخوف والحياء . . فالعقاد كان يخشى أن يفتضح أمره وينكشف ضعفه . وله خصوم كثيرون . . ولذلك كانت رسائله «رسمية» . . ولم تكن عاطفية . . وقد كان العقاد في قصائده عاشقاً غارقاً في الحب والكبرياء معاً . . فهو إذا نزل بحر الحب . . نزله واقفاً ليظل رأسه فوق سطح الماء !

وبعد ذلك كانت له علاقات غرامية تافهة . . كان يندفع ، ثم يمسك نفسه ويحتقر المرأة التي لا تعرف قدره ولا تدرك

عظمته . فكان العقاد عـدو المرأة الثـاني في التاريـخ العربي . العدو الأول كان أبو العلاء المعري . .

أما توفيق الحكيم فهو صاحب لقب عدو المرأة . . ولم يكن عدواً لها . وإنما العقاد هو العدو الحقيقي العالم بكل ضعفهـا ونقصها وزيفها . .

* * *

وكان العقاد يكره محمد عبد الوهاب . . ويرى أن محمـد عبد الوهاب ليس عنده إحساس . . وإنما هو رجل يؤدي الفرح والحزن بطريقة ميكانيكية . . وكان العقاد يقول لنا : هات أي أغنية لمحمد عبد الوهاب . . وأسمعها . . إذا كانت بطيئة فهي حزينة . . وإذا كانت سريعة فهي مرحة . .

وكان يقول : أغنية يا عزيز عيني وأنا بدي أروح بلدي . . إذا أنت غنيتها ببطء فالأداء حزين وإذا غنيتها بسرعة فإنها تكون مرحة . .

يعني أن محمد عبد الوهاب ليس لديه أي إحساس فني ولا إحساس مرهف !

وكـان محمد عبـد الوهـاب يقول : أننـي لا أفهم العقـاد . . ولا أعرف ما الذي يقول . . وأندهش كيف يفهمه الناس . .

ولكن لماذا ؟

لسبب بسيط هو أن محمد عبد الوهاب لم يغن قصيدة واحدة للعقاد بينما غنى قصائد كثيرة لشوقي أمـير الشعراء ولغـيره من الشعراء . . فكان يهـاجم عبد الـوهاب ، وطبيعي أن يهـاجمه عبد الوهاب !

وفي ١٩٨٩ أقمت أنا وحدي مهرجاناً للعظماء الذين ولدوا قبل ذلك بمائة عام : العقاد وطه حسين والمازني وعبد الرحمن الرافعي وإيليا أبو ماضي . وكذلك عظماء الغرب : هتلر ونهرو وشارلي شابلن والفلاسفة الوجوديون : هيدجر ومارسيل وفتجنشتين وكوكتو والمؤرخ البريطاني توينبي والزعيم الهندي نهرو . .

ورأيت في ذلك الوقت أن أعظمهم العقاد ــ فهو أعظم المفكرين العرب على الاطلاق . . وعظمة العقاد هي أنني أجد نفسي في طرقاته وسراديبه . ولذلك تعلقت صورة العقاد طويلاً على جدران طفولتي ورجولتي وأصدرت عنه كتابي «في صالون العقاد ــ كانت لنا أيام» . . ثم أصدرت كتاباً آخر بعنوان «عاشوا في حياتي» . . وفي الكتاب عاش العقاد حياتي وفي حياتي وعشت حياته أيضاً .

* * *

وهذا العام ١٩٩١ تحتفل الدنيا بمرور مائتي عام على وفاة عظيم الموسيقى موتسارت (٣٥ سنة) . وهو الطفل المعجزة . الذي لا يمكن أن تربطك به أية صلة إلا الاعجاب به . . فعندما كان موتسارت في السابعة من عمره وألف سيمفونيته الأولى كنا في مثل سنه نلعب في الشارع . . نركب عصا ونظن أننا فرسان . . أو كنت أضع التراب في عيون الأطفال ويتوهم أهلي بأنني سوف أكون طبيباً للعيون لأن المثل الشعبي يقول : خذوا فالكم من عيالكم ــ والفال يقول أنني ما دمت افتح عيون الأطفال لكي أضع فيها قطرة من التراب ، فسوف أكون طبيباً للعيون !

وعندما أصبح موتسارت يؤلف الأوبرات كان أي واحد منا تلميذاً في الابتدائية أو في السنة الأولى الثانوية . . وموتسارت هذا العبقري لم يدخل مدرسة . وإنما أبوه قد علمه كل أسرار الموسيقى والعزف ـ والباقي كان من صنع عبقريته هو . وهذا الطفل المعجزة موتسارت مات وهـو يعمل . فهـو لم يعرف في حياته إلا أن يعمل . . حتى إذا ذهب إلى الحانـات جلس إلى البيانو يؤلف مرتجلاً . فإذا عاد إلى البيت فإنه يكتب . . لقـد ألف ٦٢٦ عملاً موسيقياً بديعاً مكتملاً . . وقـد عاش فقيـراً ومات فقيراً أيضاً . فكان يكسب الكثير ويبدده فـوراً . . فهو يحب أن يكون الناس حوله . وفي ضوضاء الناس تتدفق عبقريته الموسيقية والغنائية أيضاً . وكل شيء في موتسارت يفيض في كل الاتجاهات : إذا ضحك فمن قلبه وإذا اكل فكثير وإذا شرب فزجاجات عديدة من النبيذ . وإذا نام فهو طفل ، وإذا جلس يعمل فهو عفريت كأن أحداً يملي عليه . . فهو يكتب بسرعـة وخـطه جميل جـداً ولا يشطب مـطلقـاً . ويحفظ كـل شيء في رأسه . .

وهو مثل محمد عبد الوهاب والعقاد له قصة مؤلمة مع دورة المياه . فهم جميعاً يتوجعون إذا دخلوا دورة المياه وإذا خرجوا منها جميعاً يعيشون بأعصابهم . . وكانوا جميعـاً يبكون من ويـلات الجلوس للراحة . . لقد كانوا يجدون الراحة بصعوبة شديدة !

* * *

ونحتفل هذا العام ١٩٩١ بمرور ١٠٠ سنة على ميلاد شاعر الصخور : محمود مختار . . وهو الذي أبدع في تصوير نهضة

مصر والنيل والفلاحة وتمثال سعد زغلول . .

محمود مختار بلدياتي وهو من مفاخر محافظة الدقهلية مثـل اللامعين : أم كلثوم والسنباطي . . والشعراء : علي محمود طه وإبـراهيم ناجي وصـالح جـودت والهمشري وكامـل الشناوي وعبد العـزيز شرف . كما أن من مفـاخر الـدقهلية : فاتـن حمامة وسهير البـابلي وعـادل إمـام ومحمد صبحـي والمنيـدي ويـونـس شلبي وحسين الشربيني ونجاح الموجي وعايدة الشاعر وزكريا الحجاوي . . وكذلك علي باشا مبارك وحسين هيكل باشا ولطفي السيد وقاسم جوده وفاروق الباز وأسامة الباز وممدوح البلتاجي ورؤساء التليفزيون : تماضر توفيق وهمت مصطفى وفتحي البيومي وعبد السلام النادي ورؤساء التحرير : محمد التابعي ومحمود التهامي ومحفوظ الأنصاري ووحيد غازي ومصطفى شردي وسناء البيسي .

وكانت أم الأستاذ العقـاد من المنصورة .

وكذلك مؤلفا المسرح : نعمان عاشور ورشاد رشدي .

وكان الفنان الايطالي العظيم ميكل انجلو يقول عن صناعته للتماثيل : أنا لا أصنع تمثالاً من الحجر . . إنما أنا اكشف الحجر عن جسم التمثال . .

أي أن التمثال موجود في الحجر وهو يرفع الغطاء عنه . .

وهو يريد أن يقول انه لا يفعل شيئاً ، فقط يوقظ التمثال النائم . . وليس هذا تواضعاً ، وإنما هو قمة الغرور . . فهـو يقول أن تمثاله كأنه حي توارى تحت الحجر . وتمثاله كأنه حي .

وهو صادق في ذلك تماماً .. فتماثيله تكاد تنطق .. بل أنها تنطق .. ويقال أنه نظر إلى أحد تماثيله وقال له : أنطق .. قل أي شيء !

ولكن المثال محمود مختار ، شاعر الصخور هو صاحب أسهل عبارة .. أو أجمل خطوط وأكثرها نعومة .. فكل كائناته الرخامية ناعمة الخطوط والإنحناءات .. لا أحد فيها يتكلم وإنما يهمس .. لا أحد يهمس وإنما يغني .. وهو لم يكتب شعراً ولكنه نحت الشعر صخراً .. حتى نسينا أنه صخر ..

أن الفلاحات التي صممها مختار تكاد تقفز من قواعدها .. أنها تمشي ..

وقال أحد النقاد الفرنسيين عن أعمال مختار : لو ذهب أحد إلى متحف مختار في ساعة متأخر من الليل ، لوجد التماثيل كلها تتمشى بعيداً عن عيون الناس ..

إلى هذه الدرجة فيها حياة وحياء أيضاً !

وكان من عادتي إذا نظرت إلى تمثال مختار أن أتامل أصابعه الناعمة الرقيقة ، كيف حولت الصخر إلى عجين .. وكيف علمت العجين أن يكوّن كلمات بليغة قوية ــ كعبارة العقاد .. وأن تصل إلى أذنك بأجنحة الفراشات مثل موسيقى محمد عبد الوهاب ..

أن الفتاة الأميركية التي أحبت الشاعر الفرنسي فيكتور هيجو كانت تركع عند قدميه وترفع يد الشاعر .. وتنظر إلى ما بين أصابعه وتقول : أنني أرى شلالات من النور تتدفق في نهر الأبدية !

ولما سألوا الشاعر هيجو كيف استطاع أن يؤلف هذا العدد الهائل من القصائد والروايات فكان يقول : أنني أكتب سطراً واحداً كل يوم !

* * *

كل هؤلاء النابهين الذين تعلقت صورهم على جدران طفولتي وشبابي ورجولتي كانوا يبدعون سطراً كل يوم .. لم يتوقفوا عن الإبداع .. فقد عاشوا ليبدعوا ، فطالت أعمارهم .. فالفنان يولد ولا يموت .. له شهادة ميلاد وليس له تصريح بالدفن .. الفنان يولد مرتين : مرة يوم مولده ومرة يوم وفاته .

أهم صفات النابهين أنهم لم ينسوا أنهم أطفال ونسوا أنهم شيوخ .. فقد عاشوا شباباً على طول .. فهم يحبون الحياة ، وفي نفس الوقت يعشقون الخلود !

عصافير وغربان على
أشجار هذا الجيل

ضع يدك على كتفي ، فأنني أريد أن أدخل إلى أعمق أعماقك . ولن أستطيع أن أبلغ هذه الغاية إلا إذا ساعدتني . ومساعدتك هي أن تطاوعني وأن تصبر . فالطريق مظلم . صعب . معقد . وأنت ـ عادة ـ لا تحب أن يكشفك أحد . . ولأنك شاب ، تريد أن تبقى لغزاً محيراً . وأن تحتمي في الضباب بعيداً عن عيون الآباء والأمهات والمدرسين ورجال الأمن ورجال الدين . . وأنا لست واحداً من هؤلاء . فأنا صديق . أكبر سناً وأكثر تجربة أريد أن أفهم . والذي أفهمه أريد أن أنقله اليك . .

وهذا الطريق الذي في داخلك والذي بيني وبينك ليس شارعاً مرصوفاً مضاء له علامات مرور . . ولا هو طريق جبلي وعر . . ولا هو طريق بحري ولا جوي . . فأنت الطريق وأنت الهدف وأنت الصعوبة التي سوف تعترضنا نحن الأثنين لكي نصل إلى مدخل الطريق . .

إن وجدت صعوبة في هذا الذي أقوله لك ، فأرجو أن تعود

إلى بداية الكلام . وأن تجد لي عذراً . فأنا أيضاً أعرف نفسي بصعوبة . بل أنني أمضيت عمري كله أحاول أن أفهم . مستعيناً بألوف الكتب ومئات النظريات وعشرات الأصدقاء . . وليس كل الذي أكتب إلا نوعاً من الأعتراف : بالذي فهمت والذي لم أفهم . . وبالقليل الذي وصلت إليه وبالأمل العظيم في أن أعرف أكثر وباليأس من كل ذلك . . فأعذرني . فأنا أحاول أن أعرف طريقي إليك . . ثم أنك لست واحداً ، أنت ملايين الشباب الذين لا أعرفهم . ولكني أحاول . فإن نجحت قليلاً . فهذا كثير . وأن لم أستطع فكيفيني أنني حاولت .

قال الأديب الكبير أوسكا روايلد : لا تلم الذي يعزف على البيانو ، إنه يحاول أقصى ما يستطيع ! فلا تلمني ، أنني أحاول !

* * *

قرأت لطه حسين أنه وصف صوتاً رقيقاً رخيماً فقال : أنه صوت أبيض نحيل . . أي أنه وصف الصوت كأنه يراه . .

أي كأن طه حسين يسمع بعينيه . . أو يتخيل أنه يسمع بعينيه . . وكان طه حسين وهو وزير المعارف يفتتح معارض الرسم والنحت . لا هو كان يستنكر ذلك . . ولا الذين يدعونه ينافقونه . . أو يريدون أن يجعلوه أضحوكة : كيف أنه أعمى يفتتح معرضاً مرئياً !

ولكنه كان يسمع وصف اللوحات ويتخيل أنه يراها . . فكان يرى بأذنيه ! وقد عرفنا في الأدب الفرنسي الشعراء بودلير ورامبو ولوتريومون . . وكلهم شعراء التجريد والتهاويم اللونية

والسمعية . . كان بودلير يقول : ولما نظرت إلى الوادي سمعت عناق الأشجار والعطور ، وزواج الطيور والزهور . .

فهو أيضاً يسمع بعينيه . .

وشاعرنا محمود حسن إسماعيل أروع نموذج لذلك . ففي دواوينه كلها يسمع ما يراه ، ويرى ما يسمعه ويشم ما يلمسه . .

وكل حواسه تستعير مفرداتها من بعضها البعض . . ولا يدهشك هذا المزج الهائل للأحاسيس . .

وكذلك أديبنا الكبير مصطفى صادق الرافعي في كتبه : السحاب الأحمر . . وأوراق الورد . . ورسائل الأحزان . .

فهذا الأديب لم ينل ما يستحقه من التقدير العظيم . ولو كانت كتبه قد ترجمت إلى أية لغة أخرى لأجلسوه على عرش السريالية والعبثية والتجريدية . . فهو يستخدم أذنه في الرؤية ، وعينه في السمع ، وأصابعه في استطعام الدنيا حوله . .

فالأحاسيس عنده تتداخل في روعة وجمال ، كما تمتزج ألوان الرسام بعضها في بعض ــ فهو يتعمد هذا الانسجام وهذا الذوبان ، كما تذوب الأمواج بعضها في بعض ، وكذلك ألوان الشروق والغروب . . فلا تعرف أن كان شاعراً أو رساماً أو موسيقياً أو مجنوناً ــ أنه كل هؤلاء . .

* * *

ونحن في حديثنا العادي نصف مباريات الكرة بين الأهلي والزمالك فنقول : مزيكة !

وإذا نظرت إلى الكرة هنا وهناك . . والملايين يتساقطون ويتضاربون والجماهير تزأر ، ثم نظرت الى هذه الصوفية على وجه من يصف هذا العنف المنظم وهو يقول لك : مزيكا . . سيمفونية . . أدهشك ذلك . .

ولكنه رأى وسمع . . والذي رأه تحول إلى أذنيه إلى نشوة موسيقية ! .

والذي ينظر إلى لوحات الفنان الكبير صلاح طاهر فيقول لك : انها زفة ألوان . . أو أن لوحاته هي زفات مئات العرائس بعضها إلى بعض . . هذا الذي يصف اللوحات ، لم يرها فقط وإنما سمعها أيضاً . . وعندما سمعها لم يجد أفضل من أن يصفها بأنها حادث سعيد ــ وليس أسعد من الزفاف عند المحببين . .

والذين استمعوا إلى أغنية محمد عبد الوهاب «من غير ليه» وصفوها بأنها وجبة دسمة . . وأنها ديك رومي . . وأنها عشرات من زجاجات الشمبانيا . . وأن الأنغام لها لون وطعم الشمبانيا . . أي أنهم عندما سمعوها رأوها . وعندما رأوها تذوقوها . وعندما تذوقوها انتشوا وتمايلوا كأنهم سكارى سعداء !

وفي فرنسا وصفوا صوت المطربة إديث بياف بأنه نوع من القطيفة ذات الخيوط الذهبية على بشرة وردية في حوض امتلأ بالنبيذ ! .

وكان صوت إديث بياف أجش مرتجفاً . . كان صوتاً غليظاً مرتعشاً . . فكأنها تطلق طاقات كهربية من جسمها تنتقل إلى أجسام الناس . . أما أثر هذا الصوت عند الفرنسيين فهم ناعم

اللمس كالقطيفة ، قاتم كالقطيفة السوداء ، ولكن فيه لمعان وبريق كأنه خيوط من ذهب . . وكان اللون شديد السواد ، لأنه فستان لواحدة شقراء ، نزلت في حوض من النبيذ الأحمر، وأنها كانت في غاية النشوة . . أو أن الذي يسمعها يراها هكذا ، ثم يشعر هو بالنشوة لروعة الذي رأى والذي أحس ــ كل ذلك من مجرد الاستماع إلى صوت إديث بياف !

وكنت عندما أستمع إلى صوت فايزة أحمد تغني «غلطة واحدة في العمر مرة» من تلحين محمد الموجي ، أشعر بأن بالوناً أرتفع بي . . إلى فوق . . فوق رغم أن الغلطة أو الأخطاء تهبط بالإنسان إلى تحت تحت . . ولكن الصوت الجميل واللحن الجميل والأداء الرائع ، جعلني أتسامى على الغلط وأغفر تحية للمحبين الذين أخطأوا وأحسنوا الظن . . فهذا اللحن وهذا الصوت وهذا الأداء والزفة الموسيقية تجعل مني عريساً . . أما عروسي فهي هذه الغلطة : فكيف لا أحبها ؟!

وكنت عندما أستمع إلى عبد الحليم حافظ يغني : سواح في البلاد سواح . . كانت الدموع تملأ عيني . . فأنا هذا السواح بين كل البلاد وكل النظريات . . ضائع . . تائه . . لا أعرف لي براً ولا بحراً . . ولا أهتديت إلى عقل ، ولا امتلكني قلب . . سواح والليل رواح . . لقد بهرني الصوت واللحن والموسيقى وكلمات الشاعر محمد حمزة . . وبعد ذلك كنت أطلب إلى عبد الحليم حافظ أن يغنيها لي وحدي . . وكنت أبكي على حالي ويسألني : مالك !

فأقول له : لا أعرف ماذا أقول لك . . فليست لي شكوى

من أحد . . ولا من حبيبة هاربة ولا حبيبة غادرة . . وإنما أنا أضعت نفسي . . افتقدت نفسي . . فالمسافة بيني وبين نفسي بعيدة وتزداد بعداً . . فأنا لا أعرف هذا الشخص الذي هو أنا . . حاولت أن أختار من يترجم لي مشاعري . . من يترجم نفسي إلى نفسي . . من يساعدني على فهمي لنفسي . كل الفلاسفة ، كل علماء النفس ، كل الشعراء كل الأدباء كل الرسامين ، كثير من الأحياء وكثير من الأموات . . والنتيجة كما ترى : سواح بلا شاطىء . . بلا أرض . . بلا سماء !

ويقول عبد الحليم حافظ : يا نهار أسود ومنيل . . كل ده . . ولا تكف عن الضحك ؟! كيف ؟

ــ يا عبد الحليم أن الفلسفة التي أدرسها للشباب والتي تخصصت فيها لم تسعدني . لم تحل لي مشكلة واحدة . . كل الذي حدث هو أنني أصبحت أعرف لكل شيء ألف اسم . . ولا أجد حلاً واحداً . . كل ما حدث أنني ملأت قفصي الصدري بالذئاب ولكي أسكتها ، رميت لها بحمل وديع . . هذا الحمل هو نومي . . راحتي . . أماني . . إيماني . . كل الذي حدث هو أنني جعلت صدري وعقلي وقلبي حديقة لحيوانات مفترسة ، لا يحلو لها اللعب والقتل إلا عندما أنام . . أن نهاري مثل حديقة حيوانات . . . الحيوانات في الأقفاص . . والناس يمشون بينها . . فكل الوحوش في الأقفاص . . وليلي ليس إلا سفاري ــ أي غابات مفتوحة . . . الحيوانات تتمشى على راحتها . . أما الناس فهم الذين يجلسون وراء الأقفاص . . ولما كنت لا أعرف الفرق بين الليل والنهار ،

فكذلك لا أعرف متى تكون الحيوانات في الأقفاص ومتى يكون الناس . . ولا أعرف أين أنا ؟. سواح ضائع . . تائه . . حائر . . بائر !

أسمع يا عبد الحليم ــ كنت أقول له ــ سوف أحكي لك حكاية مضحكة . .

ــ أيوه ــ يا أخي كده . . أفرد وشك واضحك للدنيا . . بقى أحنا ناقصين قرف . . قل لكي أغني لك : أنا لك على طول . . وأغني لك خايف أقول اللي في قلبي لعبد الوهاب . . وأنا هويته لسيد درويش . . أضحك يا شيخ . .

قلت : مرة ذهب ملك بلجيكا إلى زيارة الكنغو فجمعوا له كل شيوخ القبائل . . وكان قد أهداهم ملابس حمراء ذهبية . . وكانوا سعداء بهذه الألوان الزاهية . . ولكن الملك لاحظ أنهم يتركونه ويختفون بعض الوقت ثم يعودون . . ولم يشأ الملك أن يسأل . . ولم يطق صبراً على ذلك فسأل فقالوا له : أنهم سعداء بتشريف جلالتك . .

فسأل : وهل السعادة معناها أن يهربوا من حين إلى حين ؟

وكانت المفاجأة ! قالوا له : إنهم من شدة السعادة يصابون بمغص وإسهال وبعد ذلك يشعرون بالجوع فيأكلون . . وبعضهم ذهب إلى زوجاته !

ومعنى ذلك أن الزيارة ورؤية الملك وهذه الألوان الزاهية تصيبهم بالقرف والإنفعال الشديد ، أو الجوع . . أو الإثارة فهم عندما رأوا سمعوا وعندما سمعوا اثيروا !

والمعنى : إن الحواس تداخلت بعضها في بعض ! بعضها محل بعض . ولم يعد الواحد منهم قادراً على أن يعرف بالضبط ماذا حدث ولا كيف !

أرجو ألا تبتعد عني . فأنني انتقل معك بك إلى مستوى شعوري آخر . ولكننا معاً نمشي بالضبط في الطريق الذي أريد والذي وعدتك به . . . فأصبر قليلاً . .

عندما ظهرت مسرحية «بيت الدمية» للكاتب النرويجي إبسن وظهرت البطلة « نورا » في شجار مع زوجها ثم أغلقت الباب وراءها خارجة من البيت إلى الشارع . . إلى حريتها . قال النقاد : أن صوت الباب قد هز القرن التاسع عشر !

ولم يفهم الناس في ذلك الوقت ، لماذا أحست إحدى الأميرات بالمغص والرغبة في القيء . . ولم يجد علماء النفس ــ تفسيراً لعروس ذهبت لمشاهدة هذه المسرحية فمزقت ملابسها وسقطت على الأرض !

قال لي الأستاذ العقاد أنه عندما كان يقرأ رواية «الجريمة والعقاب» للكاتب الروسي دوستويفسكي ووصل في القراءة إلى اللحظة التي قرر فيها البطل رسكلنكوف أن يقتل صاحبة البيت بالسكين ، أحس الأستاذ العقاد برغبة طارئة بأن يلقي بالسكاكين من النافذة . . وأن ينهض بسرعة لأحكام باب الشقة !

وعندما ظهرت مسرحية «رومولوس العظيم» للأديب السويسري ديرنمات التي ترجمتها بطولة صلاح منصور وزوزو نبيل لم نجد تفسيراً لأحد المتفرجين الذي نام فجأة وتعالى

شخيره . . وذلك لمجرد سماعه لواحد من جنود الامـبراطوريـة الرومانية المنهارة وهو يقول : تعبان . . أنا تعبان . . تعبان . . لقد أنهدت الدنيا فوقي . . وأنا التي هدمتها . . تعبان . . أريد أن أموت . !

ولم نلتفت كثيراً إلى سيدة أخرجت بسرعة عدداً من قطع الشيكولاتة وقدمتها لأطفالها وبصوت مرتفع تضايق منه الممثلون على المسرح والمتفرجون حولها !

وفي رواية «مدام بوفاري» للكاتب الفرنسي جوستاف فلوبير كان من عادة الطبيب بوفاري أن يأوي إلى فراشه بملابسه . . وكان له حذاء غليظ . . وكان يلقي به على الأرض . . وكان لصوته دوي مدمر في أذني زوجتـه التي كانت تقف في النـافذة تتلهف عـلى لحظة اللقـاء والعناق . . وفي أول ليلة لـزواجهما سمعت صوت الحذاء ، قررت أن تقتله أو تقتل نفسها . .

وعند محاكمة الأديب فلوبير قال له أحد القضاة أن زوجته عندما قرأت هذه الـرواية ووصلت إلى مشهـد الحذاء هـذا ، أصيبت بهرش شديد في كل جسمها . . وأن الأطباء قد حاروا في علاجها حتى اليوم !

وفي رواية «فتاة روما» للأديب الإيطالي البرتومورافيا نجد البطلة واسمها أدريانا قررت أن تقتل عشيقها الخائن . . وكانت تحب النظر إلى الشعر الأسود في صدره ورموشه السوداء الطويلة وإلى شفتيه وهو يمطها قبل أن يقبلها . . ولكن عندما اقتربت منه لآخر مرة شمت في ملابسه رائحـة لامرأة أخـرى . . فنزعت ملابسها . ولما سألها قالت : سوف أخرج إلى الشـارع أجري

والناس ورائي . . وسوف ألقي باللحم والمكرونة على صدري وأتـرك نفسي لكلاب تلعقني أو تـأكلني . . وسوف أذهب إلى الدير !

وعندما ظهرت رواية «مرحبا أيها الحزن» للأديبة الفرنسية فرنسوا زساجان كانت البطلة تصف مشـاعرهـا الصغيرة وهي تلقي بحبـات الرمـل تحت بلوزتها . . وتصف مـلايين النمـل يتسلل إلى كل جسمها . . تقول فرانسوا زساجان : في كل مرة أقرأ هذه السطور أشعر بضرورة أن أخذ دشاً وأن أشرب نبيذاً وأن ألف بسيارتي أمام الكنيسة ولا أدخلها وأتفرج على اللوحات واشتري واحدة ثم أذهب إلى المقابر أزور خالتي التي لم أحبها قط !!

فما هذا الذي يشعرون به . ؟ .

ما هذا الذي يرون ويسمعون ويتذوقون . . كل ذلك في وقت واحـد ؟ . كيف تتحول الأذن عينـاً ، والعـين لسـانـاً ، والأصابع قلوباً وعقولاً ، والفرحة ندماً ، والندم سعادة ؟!

أن المشاعر يتـداخل بعضهـا في بعض . . فهي موجـودة معاً . . متجاورة كأصابع البيانو وأوتار العـود متداخلة كألوان الشفق والغسق ، وذائبة كأمواج البحر . .

* * *

والآن دعنا نجلس متقاربين متجاورين بعـد هذا المشـوار الفلسفي النفسي الفني الطويل . فنحن الآن على الباب . . لسنا أمام الباب ، ولكننا فتحناه ودخلناه . وانفتح أمـامنا الـطريق

وأتسع . . وهو الآن مضـاء قليلاً . . أرجـوك أن تعيد قـراءة السطور السابقة . .

أنت مثلاً . . أنت تشعر بأنك وحدك في هذه الدنيا . . في البيت لا تتفق مع أحد . وليس عند أحد وقت لكي يسمعك . وإذا سمعك فلن يفهمك . . وإذا فهمك فلن يناقشك . . وإذا ناقشك فلن يجد لك عذراً . . وإذا وجد لك عذراً فلن يصبر عليك ويشجعك ويمشي إلى جوارك ويدفعك أمامه . .

هذا الشعور بالعزلة . . هذا الشعور بانك لست وحدك ، وإنما هناك قوى أخرى قد نبذتك . . لأنها لا تريدك . . ولأن الأجيال الأكبر ، تريد أن تبقى دون أن تعطي لك فرصة لكي تكبر . . نفس الفرصة التي أعطيت للأجيال الأكبر لكي تكبر وتملك وتحكم وتتحكم . . وهـذا الشعـور بـانـك منبـــوذ . . مطرود . . مضطهد . . مرفوض . . هو الذي يجعلك بسرعة تتعلق بأي أحد . . بـأي بديـل عن الأب وعن الأم . ولذلـك كان إنضمام الشباب إلى الجمعيات والجماعات من كل لـون وحجم ومـذهب ودين . . فليس هذا الإنضـمام السريع إلا نـوعاً من «اللجوء» العائلي . الاجتماعي . . الروحي . . تماماً كما يهرب الإنسان من قصر كان يسكنه إلى إحدى الخيام . . ومن إحدى الخيام إلى أحد الكهوف . . فالمهم أن يكون مخبأ . . وأن يكون ذلك بقرار خاص وبإرادة حرة . . ولا يهم من الذي نام إلى جواره على الأرض . . ولا من هي صاحبة تلك الأظافر القذرة التي تقاسمه طعامه !

وبسرعة يقبل الشاب الهارب أن يكون مرؤوساً لواحد لا

يعرفه . وأن يدين له بالطاعة والولاء . . المهم أن يكون شخصاً آخر غير الأب وغير المدرس وغير ضابط الأمن وغير الشيخ أو القسيس . . وأن يكون هذا الأختيار ، هو قراره هو . .

فكأن الشباب قد رفض أن يكون «محكوماً» من والده . . وأرتضى أن يكون «محكوماً» من شخص آخر لا يعرفه . .

ومعنى ذلك أنه عندما رفض سلطة الأب ، لم يرفض سلطة الزميل أو الأخ . . فكأنه بكامل حريته قد نزل عن حريته . .

وكأنه بكامل حريته رفض البيت الواسع ، وأقام في الكهف الضيق . .

وكأنه رفض النظريات المختلفة المتنوعة ، وحبس نفسه في نظرية واحدة ينتمي لها دون مناقشة !

وهذا واضح عند الشباب الذي يجيء من الريف إلى العاصمة الكبرى . . فالريف عائلة صغيرة متقاربة متداخلة بعضها في بعض . . أما المدينة الكبرى فهي الضخامة والقوة والعظمة وأمامها يشعر الإنسان بأنه ضئيل . تافه . لا يدري به أحد . وليس أحد في حاجة إليه . . بل كان من الأفضل ألا يجيء . ليس ضرورياً لأحد . . وفي مواجهة هذا الشعور بالضآلة والتفاهة والضياع ، يتمسك بقشة . . هذه القشة تنقذه من خوفه من عزلته الجديدة . . من ضياعه مرة أخرى . . وسرعان ما يتقدم له أفراد الجمعية أو الجماعة ويؤكدون له أنهم في انتظارهم : وأنهم الأخ والصديق والأب والأستاذ . . بالأحضان . . والقبلات . .

وبسرعة ينضم إلى جماعة أو إلى جمعية . . إلى هيئة . .

وبسرعة يحتاج إلى أن يكون متميزاً عن الآخرين الذين تركهم في قريته . . والآخرين الذين ليسوا أعضاء في جماعته . . ومن مظاهر شعوره بتأكيد ذاته وقوته وحريته على مواجهة الناس : يطلق لحيته . . ويرتدي ملابس خاصة . . ويحرص دائماً على أن يؤكد أن اللحية هي الزي الموحد له مع زملائه . . وهو الحد الفاصل بينه وبين الآخرين . .

وكذلك الفتاة تحرص على أن تبدو متميزة . فيكون زيها المحتشم . . أو يكون زيها الذي يغطي ملامحها الجسدية ولا يكشف إلا عن كفيها ووجهها . أو الذي يغطي وجهها وكفيها . . فهي رفضت الزي الحر والوجه السافر والساقين الظاهرتين وجغرافيا الجسد التي يحددها الفستان ، وأختارت أن تأوى إلى مخبأ من القماش الواسع . . وأن تكتفي بثقبين في الطرحة تطل منها على الدنيا التي رفضتها والتي هربت منها إلى هذه الدرع الواقية لها من إستبداد الآخرين ــ الأب والأم والشباب الذي يعاكس !

وفجأة يتم إتفاق غير معلن بين الشباب والشابات : هذا الإتفاق هو إنهما يفضلان الإحتشام . هو يفضل أن تكون زوجته وأمه وأخته للبيت والأولاد . أن تكون ست بيت تعتمد عليه في حياتها . . حتى لو لم يكن قادراً على أن يوفر لها حياة مريحة ، فلا أقل من أن توفر له حياة فاضلة . .

ومعنى ذلك أيضاً أن الفتاة تحب الرجل الذي يرى أن المرأة

للبيت وأن الرجل للعمـل . . وأنها زوجة وست بيت وأم . . وأنها تنتظر زوجها . . وأنها تعتمد عليه . . وأنها سعيـدة بهذا الضعف الأنثوي . . وسعيدة بالرجل السيد . . سي السيد . . فالحياة في الشارع وفي مشاركة الرجل لم تسعد المرأة فلا هي امرأة ولا هي رجل . . وكانت تفضل أن تكون امـرأة . . أنثى . . ضعفها هو قوتها . . وأن الرجل حريص على ذلك !

ولذلك فـإن الفتاة المحجبـة أسرع إلى الزواج من الفتـاة السافرة . . وليس غريباً أن تجد فتيات قد تحجبن قد تزوجن أسرع !

والآن . . قد وصلنا إلى قرب نهاية الطريق . . فهنا غلطة كـبرى يقع فيهـا الشبان الحـاشرون . . الشبان القـادمون من الريف إلى المدن الكبرى . . فالشباب في حيرته وفي بحثه عن بديل عن الأب يخطىء في إختيار هذا البديل . . فيجد شاباً في مثل سنه ، بمثابة أب أو كأنه أب . . وله الطاعة العمياء . . مع أنه هارب من الطاعة العمياء لأثنين يحبـانه تمـاماً همـا : الأب والأم . .

ويذهب الشاب في طاعته العمياء إلى أن يعطي لهذا الأب الجديد كل صفات الأنبياء والألهة والقديسين . . فيشعر بضآلته وتفاهته أمامهم . . وكأنه يعاقب نفسه ، لا شعورياً ، على أنه هرب من البيت ومن طاعة والديه . .

ثم أنه يعطي لهذا الوالد الجديد كل حقوق الأباء والمدرسين والألهة . . فهو لا يناقش ولا يحاور ، وإنما يطيع فقط ، أذهب هناك . . لا تقرأ ولا تكتب . . لا تحب . . يجب أن تكره . .

يجب أن تقــاطــع . . يجب ألا تستمـع إلى الــراديــو ولا تــري التليفزيون . . ولا تقرأ ولا تفتح عينيك ولا تفتح أذنيك . . وقد أخترنا هذه عروساً لك . . لا ترفع أصبعك معترضاً ولا رأسك متسائلاً . .

هذه هي أولى الغلطات الكبرى : أن تختـار أباً من ليس أباً ، وأن تختار أماما دينياً من ليس كذلك . . كأنه قرر أن يعدم نفسه : يعدم عقله ويرمي وراءه قلبه ، ثم يلقي بجسمـه في الهاوية !

وكذلك عندما يختار الزوجة ، بديـلاً عن الأم . . لا هو إختار ولا هي اختارت . . وإنمـا هما هـاربان التقيـا معاً تحت الأنقاض في إحدى الغارات الجوية . . فجمعت بينهما الظروف القاسية ، والخوف الواحد ، فكان لا بد من تأليف جبهة واحدة وبسرعة ليقفا في تحد للمجتمع المعادي لهما . . وفي تحد للموت أيضاً !

فلا هي أم ، ولا عندها تجاربها ، ولا من أهدافها أن تعطيه من تجاربها القليلة ما يساعده على تحقيق ذاته ، وتحقيق ذاتها ، والسعادة الزوجية بعد ذلك ، والسلام مع الناس ومع السلطة ومع الضمير !

أمـا الغلطة الثـالثـة ــ وهي غلطة مشـتركـة بـين الأبنـاء والآباء . . فالآباء يرون أن هناك عداء وقـوة طاردة لهم عنـد الآباء . . والآباء يرون جموحاً وطيشاً عند الأبناء . .

والحقيقة أن هناك خلافاً فقط بين جيلين . . فجيل ذاهب لا يريد أن يذهب ، وجيل آت لا يستطيع أن يصبر . .

وكل جيل له لغة . .

وكل لغة لها جيل . .

ومن الخطأ أن يقول هذا الجيل : يا أنا يا أنت. .والصحيح أن يقال : أنا وأنت . . وسكوت الأب على هروب الابن ، معناه انه قد وافق على هذا الفهم الخطأ . . وهرب الشباب ، معناه أن آباءهم أعداء لهم . . وأن الآباء قد تجاوزوا عمرهم الافتراضي وحان موتهم . . وأن من حق الشباب أن يعيشوا على أنقاض وجثث الأجيال الأكبر . .

* * *

فما المعنى لكل ذلك ؟

وما معالم هذا الطريق الملتوي الصاعد الهابط ، الغـامض أحياناً والواضح أحياناً ، والذي لا مفر من إرتياده ؟

أستاذنا العظيم سقراط أجاب عن ذلك بقوله : أن الإنسان يمد يده إلى القفص ليخرج عصفوراً فيجد الذي في يده غراباً . . لقد أراد العصفور فجاءه الغراب . . إنها غلطة في الاختيار . . انها غلطة غير مقصودة !

أراد الشاب أباً فجاءه أخ . . أراد أخاً فلقى أباً ــ وهذه غلطة الشباب عن حسن نية !

ولكن عندما يجد الشاب أن كل أخ أب ، وكل زوجة أم . وأن كل أب عدو ، وكل أم متآمرة . . وأن هذا الزمن قاتل وأنه ولد في هذا الزمن ، وأنه غريب في عصره . وأن عصره يريده

كـذلك . . أي يـريد عـزله ونبـذه وطـرده وقتله ، فهـذا هـو الإنحراف . . الخلل . . المرض . . الجنون !

وفي علم النفس وعلم وظـائف الأعضـاء مـرض اسمـه «التداخل الحسي» ـ أي عنـدما تتـداخل الحـواس ، دون أن تكـون لنا إرادة في ذلـك . فهذا هـو المرض . عنـدمـا تختلط الإحساسات فلا نعرف المريض أن كان يرى أو يسمع . . عندما يضع اللوحة الفنية على أذنه ليسمع ما تقوله الألوان . .

ويؤكد لنا ولنفسه أن الألوان تقول . . أو عندما يضع أنفه عـلى تمثال ويؤكـد أن له رائحـة . . وعندمـا يسمع المـوسيقى ويصف ألـوانها واحداً واحـداً . . هـذا هـو المـرض . . فقـد اختلطت كل الألوان والأصوات والعطور فلم يعد قادراً على أن يفرّق بين العين والأذن ولمسات الأصابع وحساسية الأنف . .

وعندما أصيب الموسيقار كورساكوف بالجنون كان يضع أنفه في الطعام ليأكل . . وكان يقف على المقاعد يلصق اللوحـات بعضها ببعض لتتمكن من الحوار معاً . وليتمكن هو أيضاً من تسجيل كل ذلك .

وعندما ذهب كورساكـوف إلى أحد أقسـام البوليس كـان الضابط يسأله : وكيف وقع ذلك أمس . . .

فكـان كورسـاكوف يضـع ساقيـه على مكتب الضـابط ليتمكن من سماعه بوضوح . . فكان يعتقد أنه يسمع بقـدميه ويرى بأذنيه !

والدراويش والرهبان البوذيون في ساعات «التجلي» يرفعون

أيديهم في الفضاء لكي يسمعوا بها وينامون في الفراش ويضعون الأغطية على عيونهم لكي يروا أوضح . .

وهناك عبارات شهيرة لبوذا يقول فيها : عجبي كيف أن هـذه الوردة بـلا رائحة مـع أنني وضعتها عـلى أذني ساعـات طويلة . . كيف أن هذه الفاكهة بـلا مذاق مـع أنني احتضنها بكفي سـاعات طـويلة . . أنني أغلقت عيني حتى لا تدخلهـا الضوضاء !

إن غلطة الشباب الوحيدة ليس أنه أراد عصفـوراً فوجـد غراباً . ولكن غلطته أنه عندما وجد العصفور راح يـؤكد لنفسه أن هذا العصفور غراب . . وان العالم كله يتآمر عليه ليؤكد له أنه أخطأ في الاختيار . وما دام قد أخطأ مرة فهو غلطان على طول . .

وهـذا العنـاد من جـانب العـالم كله . يقـابله عنـاد من الشباب . . ومن كل الشباب . . ومن مظاهر العناد أن يقول الشباب : بل لا يوجد عصافير وغربان . . كلها غربان . . هذه عقيدتنا ونحن أحرار في أن نملأ أقفاصنا بـالطيـور التي تعجبنا ونعطيها الأسم الذي نريد .

هذه إرادتنا حتى لو كانت خطأ ، فهي قرارنا . . وقرارنا الخاطىء أصبح من قرار الآباء والأمهات ورجال الأمن والدين ، مهما كان صحيحاً . فالغلط منا صح . والصـح منهم غلط — انتهى ! .

هـذا حكم الشباب علـى الشيوخ ، وهـذه إدانة الشيـوخ للشباب . فليس بين هذين الجيلين إلا قاتل وقتيل . يا نحن يا هم !

أرجو أن تعيد قراءة بعض هذه السطور . فإنها تحتاج منك إلى ذلـك . فـالمـوقف دقيق . والـطريق صعب . والنهـايـة ضبابية . . وسوف أعود معك وبك إلى ذلك مرة أخرى !

صباح الخير ولكن قل
لي ما معنى الخير ؟!

صعب جداً أن يطلب إليك أحد أن تقول له ما معنى الكلمات التي تستخدمها . . لأننا نستخدم الكلمات بالجملة . . أو بالتقريب . . فكل يوم نقول لبعضنا البعض : صباح الخير . . مساء النور . . ألف سلامة . . ولم يفكر واحد منا أن يعرف معنى الخير والسلامة والنور .

وإذا حاولت أن تعرف فهناك ألوف المعاني والنظريات لمعنى الخير . . الخير الخاص . . والخير العام . . والخير الأخلاقي . والخير الاقتصادي . . ولم يعرف الإنسان معنى كلمة «النور» أو الضوء أو الشعاع . . أو الإشعاع إلا متأخراً جداً . . ولم يعرف إلا أخيراً جداً أن الأشعة ليست «حزمة ضوئية» : كما كان يقال لنا في المدارس . . وإنما الضوء موجات . . وذبذبات . . وأن سرعة الضوء هي السرعة المطلقة . . أو أسرع حركة في الكون كله . . فالضوء سرعته ١٨٦ ألف ميل في الثانية . . وأن المسافات بين الكوكب تقاس بسرعة الضوء أو بالمسافة التي بين الأرض والشمس (٩٥ مليون ميل) . .

ولذلك كان من الصعب جداً أن أرد على ألوف الرسائل التي بعث بها رواد المعرض الدولي للكتاب فكلها من هذا النوع : ما رأيك في النجاح . . في الشهرة . . في الشباب . . في المجد . .

فهي أسئلة تدل على حسن الظن بي . . وفي نفس الوقت تدل على «التعجيز» . . لكن عذري أنني سوف أحاول أن تكون إجابتي سريعة مثل الأسئلة . والسرعة لها عيوب . ومن عيوبها ألا تكون دقيقة . . وإن السادة رواد المعرض هم الذين اختاروا السؤال وفرضوا نوع الإجابة . وعذري في عدم الدقة واضح . . ولكن لا بد أن أحاول ، مهما كلفني ذلك . .

وهي فرصة ، أشكرهم عليها ، لأن أحاول أن أجرب العبارة الصغيرة السريعة المكثفة التي لها مذاق الحكمة وجمال حبات اللؤلؤ ، ولا ينقصها إلا أن أعلقها في عنق جميل . .

وأستاذنا العظيم سقراط كان أستاذ هذا النوع من الأسئلة والأجوبة . فإذا قال له واحد من تلامذته صباح الخير يرد عليه : وما معنى الخير . . قل لي . .

وكان يبدأ هو بشرح المعنى . . ويسأل تلامذته ما رأيك ؟

ولا يزال يسأل ويسأل حتى يهتدي مع تلامذته إلى المعنى الذي يريد .

وسقراط كان يعتقد أن معاني الكلمات موجودة في أعماقنا . . وأن الوسيلة الوحيدة لإخراج هذه المعاني هي الحوار . . المناقشة . . فنحن لا نكتشف المعاني ، وإنما نكشف عنها

الغـطاء . والوسيلة الـوحيدة هي : الحـوار . . تمامـاً كصانـع التماثيـل . . إنه لا يصنعهـا ، وإنما يرفـع الحجـر عنها . . فهـي مدفونة في الصخر . فإذا رفع عنها الغطاء دبت فيها الحياة . . وكذلك كل المعاني . .

* * *

أنا أقول لك : الكفاءة هي قدرتك الخاصة على أن تصل إلى القمة ، دون أن تتزوج بنت رئيسك في العمل !

* * *

قدرة بلا طموح : سيارة بلا موتور !

* * *

العلاقات الشخصية أسرع في الوصول من الموهبة . . لأنه حيث لا يوجد قانون فالعلاقات الشخصية هي القانون !

* * *

الزوجة المتعبة هي التي تصر على أن تقوم بدور الأم طول عمرها ، وأن تقنع زوجها بأنه «عيل» لتتصرف هي في حياته أيضاً !

* * *

لا تستطيع أن تذهب إلى أي مكان دون أن تبدأ بالخطوة الأولى !

* * *

السبب في زيادة عدد السكان في مصر : إن الناس يولدون أسرع من أن تدوسهم السيارات في الشوارع !

* * *

أول شيء يراه السائح في مصر: ترابها. . وآخر شيء: هبابها !

* * *

لن يكون لأي إنسان مكان تحت الشمس إذا كان يجلس طول الوقت في ظل الكسل !

* * *

من الصعب أن تقنع الآخرين بإنجاز شيء إذا لم تكن أنت قد أنجزت شيئاً !

* * *

يا أخي أفعل شيئاً . . إمش في الطابور . . أو تقدم الطابور . . أو أخرج عنه نهائياً !

* * *

أنت لا تعرف كم تطول حياتك . . فقط أنت تعرف عرضها وعمقها فقط !

* * *

الآن . . الآن . . فالآن كان «غد» الأمس . . وهو «أمس» الغد !

* * *

هناك ثلاثة طرق لكي تعمل شيئاً : أن تعمل أنت . . أو تكلف أحداً غيرك . . أو يمنعك أولادك من عمل أي شيء !

* * *

أن تعرف ولا تعمل : كمن يحرث الأرض ولا يبذرها !

* * *

السعادة كالمرض معدية .. لا تنتظر حتى تنتقل إليك عدواها ، انقلها أنت إلى الأخرين !

* * *

من يقدر فإنه يعمل ، ومن لا يقدر فإنه ينتقد !

* * *

العبقرية : ١٪ أرق .. و ٩٩٪ عرق !

* * *

النجاح يخلق الأصدقاء ، والفشل يمتحنهم !

* * *

من يطلب منك النصيحة ، هو عادة لا يريدها .. وإنما هو يريدك أن توافقه على رأيه !

* * *

الزواج هو أغلى طريقة للحصول على أكبر عدد ممكن من النصائح مجاناً !

* * *

أكثر من اللازم دائماً : الضرائب والنصائح والمشاكل !

* * *

ثلاث مراحل في عمر الإنسان .. وهو شاب .. وهو رجل .. وهو «ربنا يديك طولة العمر» !

* * *

الطائرات النفاثة قد قربت لنا هذا العالم والعالم الآخر أيضاً !

زوجة الطيار هي المرأة الوحيدة التي يسعدها هبوط زوجها !

* * *

كل الناس يريدون الكثير ، ولا يقدرون إلا على القليل !

* * *

ثلاثة أشياء تتزايد في مصر : السكان والزبالة والأسعار !

* * *

زمان كانت البنت ترتدي مثل أمها ، الآن ترتدي الأم مثل بنتها !

* * *

كثيراً ما اختلط علينا الأمر : هل نحن على موعد مع القدر ، أو على موعد مع الحظ !

* * *

نحن لم نختر أجدادنا الفراعنة ، ولا هم اختارونا !

* * *

سخيف من لا يستطيع أن يغضب ، عاقل من يستطيع !

* * *

من يغضبك يكسبك : لأنك سوف تعتذر له في النهاية !

* * *

أن تغضب من إنسان ضعيف ، معناه انك لست قوياً !

* * *

الإناء القليل الماء ، هو الإناء السريع الغليان !

* * *

الغضب عاصفة تطفيء نور العقل !

* * *

أكبر عيوب لتعدد الزوجات : تعدد الحموات !

* * *

المتعصب : هو الرجل الذي يقفل باب العقل في وجه كل إنسان !

* * *

حتى إذا كنت تبيع نفسك ، فلا تعرض بضاعتك بصورة رديئة !

* * *

الفرق بين الكاتب الكبير نجيب محفوظ والكاتب الساخر أحمد رجب . . أن الناس يمتدحون الأول ولا يقرأونه ، ويقرأون الثاني ولا يمتدحونه !

* * *

هناك ثلاثة أنواع من الجرائم :

أن ترتكبها .

وأن تؤلف كتاباً فاضحاً .

وأن ترتكب جريمة وتؤلف عنها كتاباً !

* * *

شخصان يبعثان على الملل :

واحد يتكلم كثيراً . وواحد يسكت قليلاً !

* * *

لا أحد يكافىء إنساناً آخر بسبب أن له عقلاً ، ولكن فقط لأنه يحسن إستخدامه !

* * *

الجمال والعقل من عند اللّه ــ ولكن الأسلوب من عندك أنت !

* * *

سوء الهضم سببه الاسراف في تناول الطعـام ــ ولكن لا يوجد سوء فهم بسبب الإسراف في التفكير !

* * *

اللسان يبعد سنتيمـترات عن المخ ــ ولكن بعض النـاس تحس وأنت تستمتع إليهم أن لسانهم يبعـد ألوف الأمتـار عن المخ !

* * *

أن يجد الرجل زراراً ناقصـاً في قميصه يجعله يتخـذ أحد قرارين : أن يتزوج أو يطلق !

* * *

الرجل البخيل هو الذي لا يجد مانعاً في أن ترتدي زوجته فستاناً قصيراً لفترة طويلة !

* * *

الشيوعي هو كل إنسان فشل في أن يكون رأسمالياً !

* * *

الشخصية تنمو في حقول التجربـة : حيث الأسمدة هي

القدوة . . والماء هو الإرادة . . والشمس هي الأمل !

* * *

التجربة : هي التعليم الإلزامي !

* * *

أصبر على أخطاء الآخرين ، لكي يصبروا على أخطائك !

* * *

وإذا أردنا أن نتقدم على روسيا ، يجب أن نمشي وراء أمريكا !

* * *

نوعان من التعصب : للماضي أو للمستقبل . . أما الحاضر فهو الضحية !

* * *

كل الناس يبحثون عن السلام على الأرض ، ولكن أحداً منهم لا يقولون لنا : أين ذلك ؟

* * *

السلام الحقيقي : في قبرك !

* * *

من الصعب أن يكون سلام في هذه الدنيا ما دامت الأرغفة أقل عدداً من أفواه الجياع !

* * *

كل لجنة مكونة عادة من خمسة أشخاص :
واحد يعمل وثلاثة يؤيدونه أدبياً والخامس ينشر الأخبار في الصحف !

* * *

هناك نوعان من الأنانية :
إناس يعترفون بذلك ، ثم بقية الناس !

* * *

أضحك . . أضحك مع الناس ، وليس منهم !

* * *

مشكلة الشباب :
بسرعة يبدأون أي عمل ، وبسرعة يتوقفون عن ذلك !

* * *

إناس يقدرون على الكذب . .
وإناس يقدرون على الصدق . .
وبقية الناس لا يقدرون على معرفة الفرق بينهما !

* * *

حالة واحدة لا يقاطعك فهيا الناس عندما تتكلم : وأنت تمتدحهم !

* * *

الذين يشكون دائماً من أنهم لم يحصلوا على ما يستحقونه في هذه الدنيا لا يعرفون كم هم محظوظون حقاً !

* * *

لا نحاسب أحداً على ما يقول : إذا كان في حالة حب . . أو إذا كان مخموراً . . أو إذا كان يجري وراء الأتوبيس !

* * *

هناك نوعان من الناس :

إناس يملكون وإناس لا يملكون .

أو بعبارة أخرى : زوجات وأزواج !

* * *

أنت لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت ــ ولكن إناساً غيرك يحاولون !

* * *

هناك إناس لهم رؤوس مثل «أكرة» الباب . . يمكنك أن تديرها يميناً وشمالاً !

* * *

الإتجاه الآن إلى الغاء كل علامات التعجب (!!!) فلم يعد أحد يتعجب لشيء !

* * *

على الرغم من إننا لا نتعجب لشيء أو من شيء ، فإننا نسرف في إستخدام علامات التعجب !

* * *

الإدارة الناجحة هي التي يكون فيها مدير المبيعات متفائلاً ، ومدير الحسابات متشائماً !

* * *

المتشائم هو الذي يرى السيجارة دخاناً ساماً ، والمتفائل يراها مزاجاً !

* * *

المتشائم هو الذي إذا رأى باقة ورد سأل عن موعد الجنازة ،

والمتفائل هو الذي يقول : ومن تكون العروس !

* * *

الرقصة الجديدة أسمها : رقصة السياسة وهي عبارة عن خطوتين للإمام وواحدة للخلف والأخيرة على الجنب !

* * *

السياسي هو الرجل الذي يعد الناخبين ببناء الكبارى على الرغم من عدم وجود أنهار !

* * *

شيء واحد يندهش له السياسيون : كيف أن اللّه سبحانه وتعالى يدير هذا الكون العظيم دون تشكيل لجان !

* * *

السياسي هو رجل له ذاكرة قوية ، ويتمنى للناس عكس ذلك !

* * *

ليس مريضاً : من يستطيع أن يضحك !

* * *

أمريكا هي الدولة الوحيدة في العالم التي بها فقراء على أعلى مستوى !

* * *

الفقر والجوع والقرف : حالة نفسية قالها رجل بعد أن امتلأت معدته !

* * *

الواعظ الذي يقول لك ما لا يفعل ، لا يصح أن تستمع إليه !

* * *

يونس عليه السلام تعلم في بطن الحوت أضعاف الذي تعلمه على الشاطىء !

* * *

عندما ينام أحد أثناء خطبة الجمعة يجب أن يذهب أحد إلى الخطيب فيطلب إليه أن يغير الموضوع !

* * *

ابدأ حيث أنت . . ولا تقف حيث أنت !

* * *

النحل لا يستطيع أن يفرز العسل وهو يلسع في نفس الوقت !

* * *

. . حتى الحمار لا يستطيع أن يتقدم إذا كان يرفس دائماً !

* * *

الأمريكان عندهم دجاجتان في كل حلة ، وسيارتان في كل جراج ، وصداعان لكل قرص أسبرين !

* * *

علم النفس هو كلامنا العادي جداً وقد تحول إلى عبارات غير مفهومة ينطقها إناس يتكلمون العربية بصعوبة !

* * *

الطفل الشاذ هو الذي يوجه إلى والديه أسئلة يمكن الإجابة عنها !

* * *

المثقف جداً : هو الشخص الذي اكتشف أن هناك أسئلة كثيرة يستحيل الإجابة عنها !

* * *

المرأة تعيب على الرجل أنه يكذب كثيراً والحقيقة أنها هي المسئولة عن ذلك لأنها تضع أصعب الأسئلة في أكثر الأوقات حرجاً : قبل النوم بلحظات !

* * *

التلفيزيون أستاذ كبير : لقد علمنا أن نتجه إلى الإذاعة !

* * *

من مزايا الإذاعة أنها لا تجعلك ترى الناس الذين يسببون لنا الصداع !

* * *

إذا كنت تشكو من الوحل ، فلا تطلب من السماء أن تمطر !

* * *

اللّه اختار لنا أقاربنا ، ونحن اخترنا أصدقاءنا !

* * *

الرأي الذي لا يمكن تصديره ، لا يصح إستهلاكه !

* * *

سلاح الروح : لا يصدأ !

* * *

من لا يقبض على دينه بقوة ، سوف يتسلل من بين أصابعه !

* * *

الاعترافات تشفي النفوس ، ولكنها تسيء إلى سمعتك !

* * *

حتى الأكاذيب البيضاء تترك بقعاً سوداء على سمعتك !

* * *

لكل إنسان ثلاثة أسماء :

الإسم الذي ورثه .

والإسم الذي يطلقه عليه والده .

والإسم الذي يصنعه لنفسه !

* * *

تستطيع أن تأتمن كثيراً من الناس على فلوسك ، وقليلين جداً جداً على سمعتك !

* * *

كان يقال أن المستحيل في روسيا هو الإصلاح . . والآن أصبح هو الممكن الوحيد !

* * *

الشيوعية كانت الحرية على الطريقة الروسية . . أصبحت الحرية هي الشيوعية على الطريقة الأمريكية !

* * *

البيت الهادىء . . هو الذي ليس به لا تليفزيون ولا أطفال ولا يدق بابه بائع لبن !

* * *

الشيطان لا يخاف من الكتب المقدسة التي عليها تراب ــ أي التي لا يفتحها أحد !

* * *

الشيطان هو المخلوق الوحيد الذي لا يشكو من البطالة !

* * *

الشيخوخة : هي المطافىء لجذوة الشباب !

* * *

شاب طفش من بيته ليشعل النار في الدنيا ، سوف يعود مرة أخرى إلى البيت بحثاً عن مزيد من الكبريت !

* * *

ونحن شباب نصطدم بالمشاكل ، ونحن شيوخ تصطدم بنا المشاكل !

* * *

الشباب يجف والجمال يذبل ــ ولكن شخصيتك تبقى كما هي !

* * *

أسوأ ما يواجه الجيل الجديد : ما تركه الجيل القديم !

* * *

مصيبة هذا الزمان :

الشيوخ يؤمنون بكل شيء ؟!
والرجال يتشككون في كل شيء ؟!
والشباب يعرفون كل شيء ؟!

* * *

أيها الشيطان لا تدفعنا إلى الشر .. نرجوك قل لنا : أين هو .. ونحن سوف نقوم بكل العمل !

* * *

الشيوخ يشعلون الحروب .. والشباب يكتوي بنارها !

* * *

يمضي الشاب عشرين عاماً من حياته يتعلم كيف يتعامل مع الناس .. فإذا تزوج نسي كل ذلك !

* * *

عندما ينجح الشاب في قيادة سيارة يعتقد أنه بعد ذلك قادر على كل أنواع القيادة !

* * *

معظم الفتيات يردن الزواج ، لكي يهربن من بيت الزوجية !

* * *

أصبح من الصعب أن تجعل الطفلة تنام مبكراً ، إذا كانت قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها !

* * *

بعض الشبان لم يعودوا يفرقون كثيراً بين الحلاقين وأطباء

الأسنان : إنهم يترددون عليهم مرة كل سنة !

* * *

مرحلة الشباب كالموضة : تختفي بسرعة !

* * *

لكي تبقى شاباً يجب :

أن تصدق في كلامك ، وأن تعتدل في طعامك ، وأن تنام بعمق ، وأن تعمل بحماس ، وأن تصلي بانتظام . . . وأن تكذب في سنك !

* * *

بدلاً من أن تسأل الشباب :

إلى أين . . أسألهم : من أين ؟

* * *

الشباب يريدون عملاً لا يضطرهم إلى العمل !

* * *

يندهش الشبان كثيراً كيف أن مخلوقات ذكية مثلهم قد ولدت من أب غبي وأم متخلفة ؟!

* * *

ما دمنا لا نستطيع أن نوقف الشباب ، فلنمش وراءه !

* * *

ذوقنا يتغير . . فالطفل يجب أن يكون عنده عسكري يلعب به والبنت تحب أن تكون عندها عروسة . . وعندما يكبر هو يحب العروسة وهي تحب الضابط !

* * *

أنت شاب مرة واحدة . . وبعد ذلك تتوهم أنك كذلك !

* * *

إذا كنت تريد أن تتسلق شجرة فيجب أن تتعلق بالأغصان وليس بالأزهار والثمار !

* * *

الذي يتقدم الناس هو الشخص الذي بذل مجهوداً أكبر ، ولا يزال !

* * *

الحقد هو الذي يمدك بالطين الذي تلقيه على الناجحين !

* * *

هناك مقياسان للنجاح : أن تكون لك سيارة أنيقة تقودها . . أو أن تكون لك زوجة ذكية تقودك !

* * *

إذا أردت أن تثير قلق زوجتك يجب أن تبدو هادئاً !

* * *

لا السن ولا الحب ، تستطيع أن تخفيه !

* * *

الحب كالديمقراطية : قادر على صد أي هجوم . . إلا الإهمال واللامبالاة !

* * *

الحب : نزوة . .
الزواج : غزوة . .

الطلاق : نشوة . .

* * *

الكلب هو الحيوان الوحيد في هذه الدنيا الذي يحبك أكثر من نفسه !

* * *

الحب ينظر إلى الدنيا من تلسكوب والكراهية تنظر من ميكروسكوب !

* * *

تستطيع أن تعطي دون حب ولا تستطيع أن تحب دون أن تعطي !

* * *

الفلوس تبني مسكناً والحب يبني بيتاً !

* * *

الإنسان الطيب هو الذي يحب الناس أكثر مما يستحقون !

* * *

أكثر البيوت وحشة وبرودة وظلاماً : قلب الإنسان عندما لا يسكنه الحب !

* * *

الحب لعبة غريبة : يكسبها إثنان أو يخسرها إثنان !

* * *

أسرع الناس إلى الطلاق :
كل زوج يحب نفسه أكثر !

* * *

لا تستطيع أن تعبر عن حبك بالعصا !

* * *

حب من أول نظرة : طلاق من أول نزوة !

* * *

ثلاث يحاول الرجال ان يفهموها ولم يفلحوا : البنت . . . والفتاة . . . والمرأة !

* * *

الفتاة تستطيع أن تحب من أعماق قلبها . . ولكن يبقى دائماً مكان لواحد آخر على السطح !

لا هو سي السيد
ولا هي ست البيت

عندما تقول أي أم لابنتها : قليلاً من الهدوء فأبوك نائم !

أو تقول لها : كل شيء هنا في البيت من أجل والدك . . هو أولاً ونحن نجيء بعد ذلك . . الكلمة كلمته . . الشورى شورته سيد البيت . السمع والطاعة له !

فالأم تقصد من وراء ذلك أن الزوج له الأمر وعلينا الطاعة . وأن ابنتها يجب أن يكون هذا موقفها من زوجها . فهو رجل يأمر . وهي امرأة تطيع . هو يأخذ وليس من الضرورة أن يعطي . هذا هو النموذج لما يجب أن تكون عليه الحياة العائلية . .

عندما تقول الأم للبنت : أعملي شاياً لأخيك . . يكون هذا الأخ تلميذاً في الإعدادية وهي في البكالوريوس . .

وعندما تحاول البنت أن تخرج فتقول لها الأم غداً لأن أخاك عنده اليوم مذاكرة !

وترد البنت : وما دخل أخي في خروجي ؟

الأم : لأنه سوف يخرج معك . . هل معقول أن تخرجي وحدك ؟

البنت : ولكن أذهب ؟ طبعاً أخرج وحدي . . وهل أنا صغيرة . . أنا عندى عشرون عاماً وهو عنده ١١ سنة . . هو الذي سوف يحرسني ؟ يحرسني من أي شيء ؟

الأم : رجل معك رجل . . رجل صغير . . رجل كبير . . أنه رجل . . وأنت عمرك عشرون . . أو ثلاثون فأنت بنت ولا يصح أن تمشي وحدك !

البنت : ولكن ذهب إلى الجامعة وحدي . . وأخرج في الثامنة وأعود أحياناً بعد ١٢ ساعة . . وطول هذه المدة أنا وحدي . .

والمعنى الذي تقصده الأم . . أن الولد صغير أو كبير رجل . . وأنها كبيرة أو صغيرة بنت . . طفلة تحتاج إلى حماية ورعاية . . وأن الولد يولد كبيراً . . والبنت تولد طفلة وتظل كذلك !

وإن الولد هو الأقوى . . هو الأكبر هو الأهم هو السلطة . . وهو مصدر السلطات . . أما البنت والمرأة فهي الشعب المحكوم . . الذي يطيع فقط . . والذي يبقى قاصراً طول حياته ــ هذه هي تعاليم الأم وتعاليم الأسرة القديمة . التي لم تختف حتى الآن . والتي تنقلها البنت من ببيت الأسرة إلى بيتها هي . ولكي تحرص عليها ، وتنقلها إلى أولادها أيضاً ؟!

وبهذه المعاني في دماغها ودماغ زوجها تبدأ الخلافات في

أسرتها الصغيرة . والحقيقة أن الخلافات لا تبدأ في الأسرة الصغيرة ، أنها تبدأ هناك في الأسرة الأصلية . . أي قبل أن يلتقي رجل وامرأة على الحب والزواج بعد ذلك . . هو جاء وفي دماغه أنه الرجل الذي يملك ويحكم . . وأنها البنت التي لا تملك ولا تحكم . .

ولكن في أيام الحب والخطوبة والتقارب الشديد والامتزاج والذوبان ، يخيل للاثنين انهما نوع جديد من البشر . وأن الحب الذي بينهما قد أذاب الفوارق وجمع بينهما في حضن واحد . . وأنهما متساويان متقاربان . وانهما لن يكونا ــ أبداً ــ كما كان الأباء والأمهات . . فهؤلاء ينتسبون إلى زمن مضى ، ولن يعود . .

ولكن بعد أيام تظهر الخلافات الأساسية في سلوكهما ــ الواحد نحو الآخر . .

تجد الرجل يدعو اصدقاءه إلى البيت أو خارج البيت . . أصدقاءه هو . . ويفرض الأصدقاء وزوجاتهم على زوجته . . ولكن إذا حدث أن دعت الزوجة أصدقاءها فإنه يتضايق . . ويرى أنها تفرض عليه من لا يريد من الناس .

أي أن أصدقاءه أهم . .

وأصدقاءها أقل أهمية . . أي أنه هو الأهم ، وهي ليست كذلك . . ويكون الخلاف حول ذلك . .

وإذا نام الزوج أو صحا فعلى كيفه هو . . إذا نام فلا يجب أن يوقظه أحد إلا إذا طلب ذلك . .

أما هي إذا نامت وأرادت أن تكون على راحتها ، فإنه يوقظها ويسألها : أمال المنديل فين ؟

فتقول له وهي نائمة : قدامك . . عشرون منديلاً . .

هو : قدامي فين ؟

هي : قدام المرآة . .

هو : آه صحيح !

ويكون النوم قد طار من عينيها . . رغم أنه يعلم أنها كانت مرهقة وأن يومها كان طويلاً . . وأنها توسلت إليه قبل أن تنام أن يتركها تنام ولو ساعة بعد نهوضه من الفراش . ولكنه عادة لا يفعل . لماذا ؟ لأنه ليس مفروضاً أن تنام الزوجة وهو ليس نائماً . . وأن تقوم على أطراف أصابعها تأتي بالمنديل الذي لا يبعد عن يده متراً !

طبيعي أن تتلقى تليفونات من زملائها وزميلاتها وصديقاتها وقريباتها وجاراتها . وطبيعي أن تطول المكالمات : فالمرأة بطبيعتها «رغاية» . . وليس في إمكانها أن تؤدب كل الناس وتقفل التليفون في وجوههم لمجرد أن زوجها لا يريد ذلك — فهي إذن التي تشغل التليفون طول الوقت . وهي لا تكف عن الكلام . وأنها منذ قيامها من النوم ولسانها لا يدخل فمها . . ولو انقطعت حرارة التليفون لماتت من البرد . . ولكن يحدث أن يستغرق هو في مكالمة واحدة ساعة وأحياناً أكثر . ويكون الكلام في السياسة والنكت والإدارة والرياضة . . أي أنه في مكالمة واحدة يستغرق نفس الوقت التي تحتاجه هي لعشر مكالمات .

ويختلفان على مفهوم المكالمة وموضوع الكلام ومن الذي أو التي تستاهل إضاعة مثل هذا الوقت . .

أما إذا كانت المتكلمة والدتها ، فيادهية دقي . . أن أمها تسأل عن كل شيء في حياتها . . ماذا أكلت ماذا شربت . . متى نامت ماذا قالت وماذا قال لها . وهو نفس الكلام الذي قالته بالأمس . . وهي لا تستطيع أن ترد على أمها على مسمع من زوجها . . فإنه يضيق . . ثم أنها لا تستطيع أن تقول لأمها : كفى . . لقد سألتني على كل ذلك بالأمس . .

ولذلك تأخذ التليفون وتنتقل إلى مكان آخر . . وتحاول أن تقول لأمها أنه كان جالساً إلى جوارها . . وترجوها أن تنتظر حتى يخرج وبعد ذلك تتكلم على راحتها . . وتغضب الأم وتفشل البنت في إقناع أمها أو إرضائها . . ويتساءل الزوج عن الأسرار التي لا تقال أمامه . . وأنه آخر من يعلم . . وعلى الزوجة أن تؤكد له انها لا تريد أن توجع دماغه بكلام عادي يدور بين أم وابنتها . .

ومعنى ذلك أن كل ما يقوله الرجال معاً : جاد وهام وضروري وحيوي .

وكل ما تقوله النساء معاً : فارغ تافه . . ثرثرة وإضاعة للوقت والطاقة والفلوس . .

ويصل الزوجان إلى نقطة إنفجار لا بد من الوقوف أمامها . . والنظر وراءهما في ندم وأمامهما في قلق . هذه النقطة هي : هل هذا الذي بينهما حب حقاً ؟

هل هو يحبها ؟ هل هي تحبه ؟

أما هي فتقول أن الحب وحده هو الذي جعلها ترتبط به وتتزوجه بعد ذلك . وأنها سألت نفسها ألف مرة أن كانت تحبه . وكان جوابها نعم . وهي ساءلت نفسها لأن أشياء كثيرة وقعت بينهما أغضبتها وأبكتها ومع ذلك احتملتها وحاولت أن تنهي الخلاف بينهما . فالخلافات لا بد منها ، ولا بد أن تكون قصيرة العمر أيضاً . وما دامت تحاول ذلك دائماً ، فهي — إذن — تحبه . .

ولكن المشكلة التي عند المرأة عادة هي : أنها لم تعد على يقين من أنه هو يحبها ؟ كيف يحبها ويجرحها ؟ كيف يحبها ويهملها ؟ كيف يحبها ويراها تافهة وأصدقاءها وأهلها ومشاعرها أيضاً ؟

ويؤكد لها أنه يحبها . ولكن بعد لحظات من هذا التصريح فإنه يرتكب غلطة في التعامل معها تمحو كل ذلك . . كيف يكون هكذا جافاً جامداً لا مبالياً . . ثم يقول أنه يحببها . هل يختلف الحب عند الرجل عن الحب عند المرأة ؟

هل حب المرأة أن تعطي دائماً ؟

هل حب الرجل أن يتلقى دائماً ؟

أليس الحب تبادلاً : أخذاً وعطاء . أخذاً أكثر من جانب الرجل وعطاء أكثر من جانب المرأة ! ولكن لماذا ؟ أن المرأة في حاجة إلى الحب مثل الرجل تماماً . . وربما أكثر . ولكن لماذا يتحتم عليها هي أن تعطي بلا حدود . . ويأخذ هو دون مقابل . لماذا ؟

هذه هي الغلطة في كثير من المفهومات المتداولة بين الرجل والمرأة . وهل هذه الغلطة تبدأ في التربية العائلية . . التربية القائمة على أن الرجل الذي هو رب الأسرة هو فعلاً ربها الأعلى . وعلى الجميع أن يطيعوا . . الصغار يطيعون الكبار . . والبنات تتفانى في خدمة الرجال ، صغاراً أو كباراً . فالرجل اعتاد على ذلك ، فهو يتوقعه دائماً ، وهي اعتادت على ذلك ، فالرجال يتوقعون منها أن تعطي بلا حدود . . كأنه مكتوب على المرأة أن تحمل وتلد وتربي وترضع . . فهي أم إلى الأبد . . أم لطفلها وأم لزوجها . . أما الرجل فهو طفل دائماً . . حتى إذا كان أباً فهو لا يستطيع أن يعطي لأولاده دائماً . . أنه يظل يتوقع العطاء من الأولاد وأمهم !

هل المرأة في حاجة إلى الحب ؟

نعم . بل الحب أهم علاقة في حياتها . والحب إذا دخل قلب المرأة فإنه يغير جسمها ومشاعرها كلها . وكثيراً ما سمعنا المرأة تقول : كنت أنام بالعشر ساعات . . الآن أنام خمس ساعات فقط . . كنت أكره القهوة . . الآن أشرب عشرين فنجاناً في اليوم . . كنت اضحك من كل واحدة تسرح إذا جلست وحدها . . كنت اضحك على كل واحدة إذا سمعت جرس التليفون تجري وتصطدم بالمقاعد . . وأنا الآن أفعل نفس الشيء . . بل أنني في بعض الأحيان أجري ناحية التليفون مع أن احداً لم يسمع له جرساً . . ولكنني سمعت الجرس وأقسم على ذلك . . كنت اضحك على التي تطلب القهوة وتتركها حتى تبرد دون أن تنتبه إلى ذلك . . الآن أنا أنسى وأضع فنجان

القهوة في الدولاب ثم أبحث عنه . . واللّه العظيم والمصحف الشريف أنني متلخبطة لدرجة أنني أجلس أمام الدريكسيون ولا أعرف كيف أقود السيارة . . نسيت واللّه نسيت . . إلى هذه الدرجة لخبطني الحب . وأنا سعيدة بذلك !

ومن الطبيعي أن تسأل هي الرجل الذي تحبه عن الذي فعله الحب في حياته وهل لخبطه أيضاً ؟

ويكون الجواب : لا طبعاً . .

وتسأل : لا طبعاً ليه ؟

هو : أنا غرقان في شغلي . .

هي : يعني لا أخطر على بالك وأنت تكتب وتقرأ وتجلس وحدك . .

هو : يعني . .

هي : يعني لا أخطر على بالك ؟

هو : أحياناً . .

هي : أحياناً ؟ أن صورتك لا تغيب عن عيني . . ولا صوتك عن أذني . . وأحياناً عندما ينفتح باب مكتبك أشم رائحة الكولونيا التي تضعها . . وأحياناً أنادي زملائي باسمك في المكتب . . وأنت لا شيء من كل ذلك !

هو : يا شيخة أنا لا أعرف لي رأساً من رجلين . . أنا في أيه ولا أيه ؟ الحب عاوز روقان . . وأنت رايقة !

هي : رايقة ؟ أنني أعمل مثلك تماماً . . وعندي مسئوليات . . في المكتب وفي البيت ومع ذلك أرى صورتك في كل ورقة . . ولا أريد أن أسمع أي صوت آخر غير صوتك . .

هو : ياه . . للدرجة دي ؟

هي : نعم .

وتستأنف هي هذه المناقشة بينها وبين نفسها .

وتصل إلى نتيجة واحدة هي : أن الحب عند المرأة غير الحب عند الرجل .

الحب حياة المرأة .

ولكن الحياة هي حب الرجل .

أن الحب عند المرأة أهم من العمل .

والعمل عند الرجل أهم من الحب .

وعندنا تجربة صغيرة جداً تدل على كل ذلك . أسأل أية واحدة وقل لها : هه . . عاملة أيه ؟

ويكون جوابها : الحمد لله . . زوجي هادىء هذه الأيام . . وأطلب من ربنا يديم علينا هذه النعمة !

ولكن عندما تسأل رجلاً : هه . . عامل أيه ؟

ويكون الجواب : الحمد لله . . عامل كالثور في الطاحونة . . المدير المالي عندنا رجل يسمع الحكايات ويصدقها . . وأحب الناس إليه هم أقربهم إلى أذنيه . . أي المنافقون والدساسون والذين يكتبون التقارير والذين يبعثون بالهدايا إلى زوجته . . والذين لا ينسون الهدايا في موسم الزبدة والفواكه والأرز والسمك وأعياد الميلاد والأعياد . . حاجة تقرف !

أي أن حياته هي عمله . . أي العمل هو الحب . .

أما هي فعملها هو حبها . . أي الحب هو كل العمل . .

وكما أن كل طفلة هي أم تحت التمرين . . فالبنت إذا اختارت لعبة فهي تختار عروسة تكلمها وتحتضنها وتطعمها وترضعها . انها دائماً أم . فهي أيضاً محبة . . لا تستطيع أن تعيش من غير حب . ومن غير أن تكون علاقاتها حباً في حب . . فهي عاطفية حساسة وبسبب هذه الحساسية الشديدة فهي عصبية . ولأنها تعتمد على عواطفها في الحكم على الأشياء فهي مندفعة متطرفة . وهي تحسب لكل شيء ألف حساب . لأنها تلتفت إلى الأشياء الصغيرة قبل الكبيرة ويكون اصطدامها بالرجل منذ الأيام الأولى لأنه ليس عاطفياً بتكوينه ولا هو شديد الحساسية للمشاعر . ولا هو يهتم بالجزئيات وإنما بالعموميات . .

ويلح على دماغ المرأة هذا السؤال : هل هي وحدها التي تحب ؟ هل هو حب من طرف واحد ؟ وكيف لم تلحظ أنه لا يحب أو أنه يحب أحياناً ؟ وهذه الأحيان عندما تكون في حضنه أو يجد نفسه مضطراً إلى أن يبدو كذلك أمام الناس ؟ إذن هل الذي يشعر به الرجل شيء آخر ؟ فما هو ؟ هل الحب عند الرجل هو الجنس ؟ فقط جسمها وأناقتها ومكياجها . . فقط عندما يجدها بين ذراعيه . . وبقية الوقت لا شيء ؟!

إذن ما هذا الذي عند الرجل ؟

الجواب : هو نوع من الاحتياجات . . أي مثل «سي السيد» في حاجة إلى أن يجد واحدة في البيت . . ترتب البيت وتعد الطعام . . وتربي الأطفال وترد عليه عندما يقول : مفيش حد هنا وإلا أيه ؟

فترد بانكسار وطاعة وإنحناء : أنـا هنا يـا سي السيد . . خدامتك يا سي السيد . . أمرك يا سي السيد !

لماذا ؟

لأن أهل الرجل والمرأة قد ربوهما على ذلك . أن يكون هو «سي السيـد» وأن تكـون هي «ست البيت» . . أو «خـدامـة السيادة» . .

ولكن المرأة لن تقبل هذه الإهانة ولا هذا الهوان ! وليس معقولاً أن تكون صورة مسوخة لأمها . . ولا أن يكون هو صورة ممسوخة لوالده . . لقـد تعلم الإثنان في نفس الجـامعة ونفس العلوم ويعملان نفس العمل . فهـما متساويـان . أو يجب أن يكونا كذلك . وأن كانت لهما وظـائف أخرى مختلفـة . ولكن الإنسجـام لا يكون إلا بـين المختلفين في أشيـاء ، المثقفين في أشياء ، المثقفين في أشياء أخرى . .

أن «غسيل المخ» قد حدث أثناء الطفولة . غسلوا مخها . وغسلوا مخه أيضاً . والصورة التي تراها بعد ذلك هي تشويـه للأنوثة . . وتشويه للرجولة . . والنتيجة إننا أمام رجل وامرأة قد شوهتهما التربية الاجتماعية والأخلاقية . . ولا بد من تغيـير وتبديل هذه الصورة المشوهة . . فيكون الرجل على طبيعته وهي على طبيعتها أيضاً . والمطالبة بالعودة إلى طبيعة الإنسان تجيء عادة متأخرة . ولا تجيء إلا على شكل خناقة أو أزمة . وفي هذه الأزمات . كما في الحرائق . يظهـر كل واحـد على حقيقتـه . الصادقة لطبيعة الإنسان ــ الرجل والمرأة في الأسرة الصغيرة . .

ويحاول الزوجان إزالة الفوارق المصطنعـة أو المفبركـة بين

الرجل والمرأة . وينجحان أحياناً . ولكن فجأة يعود كل منهما إلى أصله . مثلاً : تمضي الساعات ولا يدور بين الزوجين كلام . هو يحاول أن يقرأ . . أو إذا كان الإثنان في السيارة معاً فإنه يفتح الراديو حتى لا يتكلم وحتى لا تتكلم هي أيضاً . .

أي أنه لا يريد أن يتكلم . .

ولكن إذا جاء ضيوف فهو يتكلم كثيراً . وتكون له عبارة ذكية . ويبرق شيء غريب في عينيه . . ثم إذا تحدث إلى النساء كان في غاية الرقة ، تماماً كأيام الخطوبة وأيام الحب الأولى . فلماذا هو هكذا مع الأجانب . ولا يكون كذلك معها ؟

إنها تجد له عذراً أحياناً فتقول لنفسها : لأن الحكايات التي سمعتها منه مرة لا يحب أن يحكيها مرة أخرى . . ولكن إذا حكاها للضيوف فكأنه يحكيها لأول مرة . . ويكون الانتباه له نوعاً من التحية له . . وتكون رقته ولطفه مع السيدات نوعاً من الامتنان لهن على حسن الاستماع . .

وتسأل نفسها : ولكني أحكي الحكاية الواحدة مائة مرة في اليوم . . أقولها لزميلاتي وصديقاتي وأخواتي وجاراتي . . نفس الحكاية وبنفس الحماس . ولا أزهق . . هل لأن أمي كانت تفعل ذلك معي . . هل لأن المرأة أم فهي تعيد وتزيد لطفلها لكي تعلمه الكلام . . فهي تقول الكلمة الواحدة مائة مرة حتى يتعلم الطفل كيف ينطقها . ثم أنها تعلمه طوال الوقت . . فالمرأة لأنها كانت طفلة في مجتمع يتهددها دائماً ، كان لا بد أن تسمع النصائح التي لا تنتهي والتي تقال لها ليلاً ونهاراً . .

وتسأل نفسها : هل لأنني أصبحت زوجة ، فأنا مملة . .

أنني ألاحظ أنه يسمع بكل عينيه وأذنيه لأي كلام فارغ تقوله أية سيدة تافهة . . بينما لو قلت له ما قاله سقراط في معنى الحب والجمال فإنه يتثاءب . . إذن هي الحياة الزوجية . . والعلاقات الواحدة المملة هي التي تجعله لا يستمع إلى ما أقول . . تجعله هو يحاول أن يقول شيئاً حتى لا يضطرني إلى أن أقول . . أنني في لحظات أو ساعات الصمت استرجع محاوراتنا الساحرة زمان أيام الحب المشتعل وأيام الخطوبة الذهبية التي لن تعود . .

ورغم كل التطورات في تكوين الأسرة وفي التربية وفي التعليم وفي المساواة بين الرجل والمرأة :

فإن المرأة تفضل الكثير من الحب على القليل من الخبز . .

والرجل يفضل الكثير من الخبز على القليل من الحب !

يتخانق كثيراً . .
من يحب كثيراً !

رجل وامرأة يمشيان على شاطىء النيل . . الأرض كلها مطبات . . وزبالة وباعة الترمس والسوداني . . وأصوات الميكروفونات والهواء ملوث . . وفجأة تمسك المرأة بذراع الرجل وتقول له : قل أنك تحبني !

ويصحو الرجل من النوم الذي استولى عليه منذ خرج من البيت . . فهو لا يريد أن يخرج ولا أن يمشي ولا أن يقول . . ولا يوجد أي شيء يشجعه على ذلك . . فالعلاقة بينه وبينها لم تكن رقيقة جميلة بحيث يكون المشي على النيل إمتداداً طبيعياً لها . . وينظر الرجل جوله يبحث عن الأسباب القوية المفاجئة لأن يقول أنه يحبها . . فلا زهور ولا طيور ولا النيل يتثنى على إيقاع موسيقى سماوية . . ولا القمر انتهز هذه الفرصة فطلع في السماء ليعقد زواجاً سعيداً للجميع . . لا شيء يغريه بان يقول هذه العبارة التي لا مبرر لها . . والتي قالها قبل ذلك ألف مرة وفي ظروف أغرب وأعجب . .

وينظر الرجل إلى المرأة ليتأكد أن كانت فعلاً تريده أن يقول

أنه يحبها . وقبل أن يستوضح ذلك ، يجد الإصرار في عينيها وفي شفتيها المرتجفتين وفي أصابعها التي تضغط على ذراعه . ويقول في نفسه : لا بد أن لديها أسباباً خاصة سوف أعرفها حالاً .
فيقول : واللّه العظيم أحبك !

ويكون ردها : بذمتك يا شيخ هل إذا أنت قلت لي أنك تحبني بهذه الصورة أكون سعيدة . . أنك تقولها وكأنك تحلف بالطلاق . . أو كأنك تقول : واللّه أحبك إرضاء لك . . أو تحت ضغط السلاح . . وهل تظن أن هذا هو الذي كنت انتظره .

لقد قلتها بطريقة مقرفة . . طريقة تبعث على الألم والحزن على ما صارت إليه علاقتنا الطويلة وتحدياتنا لكل الظروف بيننا وحولنا . . وأنا لو كنت أعرف إنك سوف تقولها بهذه الصورة القبيحة ما طلبتها . . ولكنها غلطتي . . وأنا دائماً كالدبور يزن على خراب عشه . .

ثم تكون خناقة حادة بينهما . .

فما هو المعنى ؟

المعنى أن المرأة عندها هذا الشعور بالقلق . وأنها تريد من الرجل أن يؤكد لها دائماً أن علاقتهما قوية . وأن الحب يكبر ولا يصغر ولا يموت . وأنها لا تختار مناسبة خاصة لتتأكد من ذلك . . وإنما في اللحظة التي تحس بالقلق وبعدم الشعور بالأمان ، فإنها تطلب منه ذلك . . ويكون ذلك أثناء السير وأثناء النوم وأثناء الأكل وفي قلب المعارك بينه وبينها . . وتكون وهي مريضة وهي تلد . . في أي وقت . . والرجل يندهش

لذلك . . ولكن هذه هي الحقيقة !

وهناك سبب آخر أن المرأة تريد أن تتخانق ــ فعلاً تريد أن تتخانق . وسبب الخناقة انها تثير قضية هامة جداً عندها : هي قضية عدم الشعور بالأمان . . ثم أنها لا تعرف كيف يتحول الحديث إلى مناقشة إلى خناقة حادة وأن تكون الخناقة هي النهاية الطبيعية لكل حوار . .

وكل امرأة عندها حكايات ونوادر عن أول خناقة في حياتها العاطفية أو الزوجية . فهي عادة تبدأ من سبب بعيد جداً . . أو تافه جداً . . هذه الخناقة هي نوع من (جس نبض) الطرف الآخر . . تماماً كما يفعل المصارعون والملاكمون لكي يعرف كل منهما الآخر . . قدرته واستعداده وحرصه على الفوز في النهاية . .

مثلاً تكون الخناقة لأن المرأة تشاجرت مع الخادمة . أو انها ضربت ابنها قلما أمام الضيوف . . أو يكون الشاي بارداً . . أو الماء ساخناً . . أو تكون قاطعته في الكلام أمام الناس . . أو قالت كما هي عادة السيدات : (قل لهم والنبي يا وحيد حكاية البنت التي عانقتك في الأسانسير فضربتها قلما فهجمت عليك ومسحت شفتيها في قميصك الأبيض) .

فما الذي يمكن أن يحكيه . . لقد قالت كل شيء . ومع ذلك فإنها تطلب منه والنبي أن يحكي الحكاية ــ نفس الحكاية . . فإذا بدأ يحكي الحكاية على طريقته هو تدخلت لكي تحكيها هي كما سمعتها منه أول مرة . . ولكنه يريد أن يحكيها بشكل آخر . . ثم تقول : لا . . مش كده أنت قلت لي أنها في

الأول نظرت اليك وحاولت أن تحتك بك فاعطيتها ظهرك . . أنت قلت كده . . إلا إذا كان ما حدث شيئاً آخر !

وتكون خناقة لرب السماء !

والسبب تافه جداً . ولكن لا يزال الرجل والمرأة يتعارفان ويستعرضان أسلحة الخناقات وأسبابها أمام الناس . .

أو تحدث خناقة لأنه قال : أنا لم أكن أتصور أن امك لطيفة لهذه الدرجة !

فتقول له : لطيفة ؟ ولهذه الدرجة وهل كنت تظنها غولاً ؟ . طبعاً لطيفة جداً . . ألطف واحدة في العالم . . ومن قال لك أن ماما هي امنا الغولة . . يا أخي أنت لك كلام له العجب !

وخناقة حادة .

والمرأة لها شكوى وهي أن الرجل عادة لا يعتذر إذا تخانق . وإذا أخطأ . وإنما فقط ينسحب . ويعتبر الانسحاب نهاية للمناقشات الحادة . والمناقشة تبدأ عادة صغيرة هادئة خاطفة . . ثم تتفرع وتتحول إلى أغصان إلى أعواد من النار . . وتولع الدنيا كلها . . والرجل عادة يسكت ويحني رأسه وشيء عجيب أن يظل ينظر إلى الأرض كأنه ينظر إلى شاشة تليفزيون يتفرج ويقرأ صحيفة . . وكأن الأصوات التي حوله ــ صوت زوجته ــ شوشرة في الإرسال التليفزيوني . ثم لا يعتذر عن كل الذي قال . .

والمرأة عادة هي التي تبدأ الخناقات . وهي تبدأ الخناقات لأنها تريد أن تعرف . وأهم ما تريد أن تعرفه المرأة هو طبيعة

هذا الرجل . وطبيعة العلاقة بينهما . . وهي لا تستطيع أن تسكت على أية مشكلة لم تجد لها حلاً . والرجل لا يحب إثارة المشاكل . ولا إذا أثيرت مشكلة أن يتناقشا فيها فوراً حتى يجدا لها حلاً . فالمرأة هي التي تبادر بفرض المشاكل في أي وقت . . ويكون ذلك أثناء الطعام . أو وهي معه في السرير . . ولا يهم أن تكون في أحضانه . بل من الممكن أن تفلت من حضنه وتسأله : لم تقل لي أن كنا سنسافر هذا العام إلى الاسكندرية أو إلى الغردقة ؟!

أنه وقت غير مناسب تماماً . ولكن المرأة ليس عندها تمييز بين الوقت المناسب أو غير المناسب . فهي لا تصبر على ما يدور في داخلها . إنها تريد له حلاً الآن وفوراً . وتنتهي مثل هذه المناقشة بأن ينهض كل منهما من السرير . . هو ينام في الصالون وهي تنام على الأرض أمام السرير . .

وكثيراً ما تكتشف المرأة أنها فعلاً لا تحب الخناقات . ولكن في نفس الوقت لا تعرف لماذا تجد نفسها مندفعة إلى المناقشات الحادة في أي وقت . أنها في حيرة من أمرها . لماذا لا تكون عندها نفس القدرة على ضبط النفس . لماذا هو فقط العاقل وهي وحدها المجنونة . . ثم أن هذه المناقشات تنكد عليها . . وخصوصاً عليه هو . . فهو إنسان طيب وتعبان وشقيان . .

وبعض النساء يعتذرن للرجل . أو يعتذرن عموماً .

وبعض النساء يترددن في الاعتذار للرجل حتى لا يطلع فيها وحتى لا يتمادى في الخطأ . وخصوصاً أنه لا يعترف بالخطأ .

وبعض النساء لا بد أن يتشاجرن لا بد . . لأن الرجل ينظر إلى المرأة على أنها إنسان تافه . وأن مشاكلها فارغة . وأنها تضيع وقتها في الكلام الفاضي . وأنها لا تستريح إلا إذا تخانقت وأفسدت كل شيء . ثم راحت تبكي . .

وبعض الرجال يرى أن بكاء المرأة لا يدل على أنها حزينة أو حتى على أنها متألمة . وإنما فقط على أن الغدد الدمعية عندها في غاية النشاط . . وأن الدموع والفضفضة عن طريق الخناقات تريح أعصاب المرأة وتجعلها أقدر على تحمل متاعب الحياة . وأن أكبر خطأ في تربية الأطفال الذكور أننا نقول لهم : لا تبكوا أنتم رجال . الرجل لا يبكي . المرأة فقط !

وهذا خطأ في التربية . . لأننا يجب إلا نخجل من الدموع . . بل يجب أن نبكي . . ففي البكاء تفريج عن النفس وراحة لها بعد ذلك . . وقد أستفادت المرأة من هذه الحقيقة .

أما الرجل فيكتم في نفسه ويتلوى ويتعذب في صمت . . فإذا مات كان ذلك كمداً وغيظاً لأنه جعل همومه قنابل موقوتة أخفاها تحت جلده لتنفجر فيه وبه في النهاية !

وكثير من الرجال يستخف بالمرأة وبمشاكلها ويسخر منها . وهذا يغيظها .

وكثير من الرجال أيضاً يرى أن حياته مع زوجته أو خطيبته لا بأس بها . وأنه ليس في الإمكان أحسن من ذلك . . ولكن لأن المرأة تنظر لفوق ولا يعجبها العجب ، فهي ساخطة على حياتها وعلى حياتها . . وكثيراً ما تقول : كانت عندي فرص

أحسن . . فقد تقدم لي فـلان المليونـير . . وفلان الـوزير . .
ولكن الحب أعمى . . وأنت ضحكت عليّ بكلامك الحلو . .
والمكتوب على الجبين بالطين لازم تشوفة العين !

وتنتهي المناقشات إلى أخطاء أكبر وأفدح وبدلاً من أن تؤدي
الخناقات إلى تخفيف المتاعب وحل المشاكل فإنها تلد مشاكل أكبر
وأخطر . . وإذا كانت بعض المشاكل تحتاج إلى ساعة ، فإنها بعد
ذلك تحتاج إلى شهر لكي تنحل . . بشرط أن يكون هذا الشهر
خالياً من المشاكل لأنها تلد المشاكل والهموم تستدرج الهموم . .
وتصبح قطيعاً من الثيران الهائجة أو عشاً للدبابير . .

وهكذا يعتاد الرجل والمرأة على أن المشاكل لا حل لها وأنه
من الخير ألا يتعرضا لها , . وبذلك يخلقان موقفاً جديداً هو ألا
يكون هناك حوار من أي نوع حتى لا يؤدي الحوار إلى تقليب
المواجع وإيقـاظ النائم من الهمـوم وإحياء المـوتى من الأخطاء
القديمة . . وبذلك يدخل الرجل والمرأة في مرحلة ، (الصمت
العـاطفي) و(الصمت الزوجي) . . لا كلمـة منهـا ولا كلمـة
منه . . وإذا تكلم أحدهما فإن الآخر لا يسمعه . وهو لا يسمعه
لأنه لا يراه وليس شيئاً هاماً أن يراه . وإذا حاول أحدهما أن يبدأ
حواراً . فإن هذا الحوار يكون كالخيط القديم ينقطع بسرعة . .
ولذلك لا يزيد الحوار على كلمة أو كلمتين . . ويكـون الحل
الـوحيـد لهـما أن يجلسـا إلى النـاس ليتكلم النـاس وهمـا لا
يتكلمان . . فقد اتسعت الهوة بينهما تماماً . وهما عاجزان عن أن
يتقاربا ولذلك فـإنهما يحشران .النـاس بينهـما أو ينحشران بين
الناس . .

انتهت العلاقة . جفت المياه . ذبلت الأوراق . . فالمسافة بينهما واسعة جداً . . فليس غريباً أن يرى كل منهما الآخر صغيراً . . قليلاً . . تافهاً . . وليس غريباً أن يرى كل منهما الآخر غريباً . . كأنه لا يعرفه . . بل لم يعد يعرفه . . أو ليس من الضروري أن يعرفه لا بعد ذلك ولا قبل ذلك . . كل شيء ينتهي . . يبهت . . يذبل . . يخرس . . يتآكل . . ينهار . . يموت . . أو يستعد لذلك . . أو أنه مات !

* * *

فإذا كانت مشكلة خاصة فإن الرجل لا يبادر بحلها . .

ولكن المرأة لا تستطيع أن تسكت عليها .

والرجل يؤجل المشاكل ولا يتوقع لها نمواً أو تعاظماً . وليس مستعجلاً على الحل . ويرى أنه سوف يعود إلى النظر فيها فيما بعد . وقد لا يناقشها . وإذا ناقشها فإنه يناقشها بالجملة . . يناقشها برأي . ولا يحب أن يكون الرأي نهائياً . . وإنما كل شيء عنده بالتقريب . . وكل شيء عائم وكل شيء ليس عاجلاً !

ولكنه لا يقول شيئاً !

الفنان العظيم بيكاسو له تمثال قبيح الصورة ، أما المعنى فعميق . . التمثال عبارة عن رأسين لشابين : فتى وفتاة . . أما الفتاة فلسانها طويل يلتف حول عنق الشاب . . وأما الشاب فله أذن واحدة كبيرة . وهذه الأذن في الناحية الأخرى . . أي أن المرأة قد طال لسانها لكي يكون قريباً من الأذن البعيدة . وإذا جلس الأثنان معاً وفي أي وقت ، ، فاللسان يحاول أن يقترب من الأذن . وتكون الأذن بعيدة دائماً .

فالفتاة تتكلم كثيراً . .

أما هو فلا يتكلم إلا قليلاً .

هي تحاول أن تقول وتقول ، وهو يحاول أن يسمع ومن النادر أن يستمع .

هذه هي المشكلة الأولى في المرحلة الأولى للعلاقة بين رجل وامرأة . . وهي بداية سوء الفهم الأبدي بين الرجل والمرأة . .

وإذا نظرت إلى أثنين جالسين وحدهما . فمن المؤكد أنك سوف تجد الفتاةّ تقول وتحكي ولسانها لا يدخل فمها . وهو

صامت تماماً . أو يدير وجهه إلى الناحية الأخرى . أو يلعب في سلسلة . . أو يمسح منظاره . . ومن الغريب أن منديله يقع دائماً على الأرض . . ليلتقطه . . كأنه يريد أن يضيع بعض الوقت حتى لا يسمع أو أنها حيلة لكي يختفي تحت الترابيزة فلا يراها . هل لم يعد يحبها ؟ أبداً أنه يحبها . ولكن لماذا يفعل ما يدل على أنه زهقان وقرفان منها ؟

وقبل أن تلتقي الفتاة بالفتى تكون قد أعدت حكايات وقصصاً كثيرة عن زميلاتها وعن أخوتها وعن جاراتها وعن الذي قرأت وعن الذي سمعت . . ومن بين كل هذه الحكايات تختار حكاية مهمة جداً ــ مهمة عندها هي : أن زميلاتها في المدرسة أو في الجامعة أو في الشغل قد لاحظن شيئاً غريباً طرأ عليها . . أنها أهدأ . . أن وجهها قد إزداد نوراً . . أن في عينيها بريقاً غريباً . . أن شيئاً ما قد دخل حياتها . . حتى والدتها لاحظت أنها تصحو مبكراً . . وأنها من تلقاء نفسها ولأول مرة في حياتها تصنع لنفسها الشاي وأنها تقرأ صحف الصباح في السرير . . وأن الدهشة والتساؤل على وجوه الجميع في البيت . . حتى أخوها الصغير قال لها : مالك ؟. جرى أيه ؟. فرحانه ليه كده ؟ لقيت كنزاً ؟!

وتقول أمها : صحيح قولي لي . . إذا كانت عندك أخبار حلوة ، ماذا جرى !

وتؤكد الفتاة للجميع أن شيئاً لم يحدث . ولكنهم يعرفونها تماماً . وتقسم على أنه لا شيء قد حدث . ولكن الأم تقول لها : حتى أبوك الذي عادة لا يأخذ باله من أي شيء . . قال لي

أمس . أن البنت تقف أمام المرآة ساعات طويلة . . وفي غاية الأناقة هذه الأيام . . ماذا عندها ؟!

ثم تقول له أيضاً : أن واحدة فقط من زميلاتها عرفت الحقيقة واقتربت منها وسألتها :والشاب ده أبيض ولا أسمر . . هنا ولا مش هنا . . والشخص ده موجود هنا . . والا واقف على الباب . .

وكانت تقول : هناك شخص . . أجمل شخص في الدنيا . . ثم تنظر إلى أثر هذه الكلمات على وجهه . . ولا أثر . . كأنك القيت مجموعة من أوراق الورد على البلاط . . أو كأنها ضربت دماغها في عمود من الرخام . . ولا أثر ولا صدى !

أن مشكلة الفتاة تبدأ من هنا . هي تقول وتقول . وهو لا يقول . وتحاول أن تجرجره لكي يفتح فمه ويحدثها عن زملائه في عمله . . وأن كان احد قد لاحظ عليه أي شيء . . فلا يقول . فكأن الذي قالته ليس إلا تراباً سقط على ملابسه ولا يحاول حتى أن ينفضه . .

وكثيراً ما أحسست الفتاة أنها ثرثارة . وأن كلامها فارغ . وأنها عبيطة . ما دام كل ذلك لا يلقى عنده أي اهتمام . وأنه مثل التمثال له أذن واحدة . . بل أحياناً تتأكد أنه بغير أذن . . أو أن الأذن الواحدة تتلاشى . . حتى أصبح يرى ولا يسمع . . وحتى لا يريد أن يرى !

وكثيراً ما تسأله الفتاة : هل المفروض أن أتكلم أنا طول الوقت . . أنا بغبغان . وأنت لا ترد . . هل أنا تافهة . . أو أنني عادية جداً . وأنت عاقل أكثر من اللازم . أنا لا أريد أن

اتكلم طول الوقت . أريد أن أسمعك . . لا بد أن تقول . بدلًا من أوجع دماغك !

ولكن الشاب لا يقول . وإذا قال فكلمة أو كلمتين .

ويدور مثل هذا الحوار :

هي : مالك .

هو : ولا حاجة .

هي : ولكنك حزين . هل حدث شيء في البيت ؟ . . هل أخوتك ما زالوا يضايقونك ؟ . هل رآك أحد معي ؟ .

هو : أبداً .

هي : يعني أيه ؟

هو : لم يحدث شيء .

هي : ولكنك تبدو حزيناً . . هل أنت، حزين لأنك تحبني . . لأنني أحبك . . هل زهقت . . مللت . . هل أوجعت رأسك بكلامي . أنا مستعدة أن أخرس وأنت تتكلم . . وأنت كلامك أحسن وأعقل . وأنت أكثر ثقافة . . وأنا ألاحظ أنك تتكلم كثيراً إذا جلست مع زملائك . . فهل أنا مصدر الملل . . هل أنا التي جعلتك ، لا تقول شيئاً . . لا تقلق على ما أقول . . أنني اتكلم عن نفسي . . ثم أتكلم عليك . . واتكلم عن الناس . . وأعلق على ما تنشره الصحف والتليفزيون . . كل أنواع الكلام لعلك تقول شيئاً . ولكنك لا تقول . فما هو نوع الكلام الذي تحب أن أتناوله لكي أرى وجهك . . أرى ابتسامتك . . أرى درجة من الاهتمام بما أقول . . أو أنك تحب أن تكون في حالة صمت . . قل لي . .

وأنا ابتلع لساني ولا انطق بكلمة واحدة . ما الذي يريحك ؟ أنا أريد أن أريحك . . أن أسعدك . . أي شيء تريده ، وأنا سوف أنفذه فوراً . . هل ترى كثيراً أن نلتقي مرة كل اسبوع . . هل تحب كل اسبوعين . . هل تحب أن نتكلم في التليفون . . هل تحب الا نكون وحدنا . . قل لي . . أريد أن أعرف . . لا تجعلني كالعبيطة أشعر بأنني أكلم نفسي . . أو انني عبيطة . . لأنني اتحدث إلى واحد لا يسمعني ولا يريد . . وإذا سمعني فإنه لا يرد . . قل لي أرجوك !

هو : هيا بنا . .

هي : . . .

وينهض الإثنان . . ويكون هذا التصرف دليلاً على أنه زهق من كلامها . . أو ليس عنده ما يقوله . أو عنده ما يقوله ولكنه لا يريد . وهي لا تعرف ما الذي في داخله . هي تريد أن تعرف . ولكنه لا يفتح باباً ولا شباكاً بينهما !

أو مثل هذا الحديث :

هي : سمعت آخر نكتة ؟

هو : رايقة أنت !

هي : كيف لا أكون رايقة وأنا مع حبيبي ؟

هو : أيوه . . إضحكي على عقلي !

هي : أنا أضحك عليك . . هل تتصور أن حبي لك نوع من الضحك عليك . . مقلب . . هذا رأيك ؟ ألم تقل أنك أنت أيضاً تحبني . .

هل هذا نوع من الضحك علي . . تقول لي : أحبك لكي أسكت . . طفلة أنـا ؟ ألقيت لها قـطعة شيكـولاتـه . . لعب عيال . . ألسنا ناضجين نعرف ماذا نقول ؟

هو : طبعاً ليس في نيتك أن تجعلي منها حكاية ورواية . .

هي : ولكن الحب حكاية ورواية . .

هو : نعم . ولكن لا تجعليها مأساة !

هي : وأنت لا تجعلها مهزلة !

هو : أنت عصبية جداً

هي : وأنت بارد جداً .

هو : أشكرك . .

هي : بل أنا إللي أشكرك لأنك كشفت نفسك في مرحلة مبكـرة . . إظهـر عـلى حقيقتـك . . الحمـد للّه لقـد عـرفت الحقيقة . . حقيقتك . . وأنا كالعبيطة كل يوم أحكى وأقول . . وأنا عاملة نفسي أراجوز لكي أضحكك . . وتوهمت أن قلب الرجل لا ينفتح إلا بالضحك . . أو بالعطف . . وأضحكتك كثيراً . . ولكـن ماذا كانت النتيجة ؟ كنت ممثلة هـزلية عـلى مسرح جمهوره نائم . . وتوهمت أن الجمهور يضحك . . ولكن الجمهور كان يضحك لسخافة النكت التي أقولها . . أو لحماسي للنكت البايخة التي أقولها وكأنها شيىء جديد . . مع أن الممثلين على المسرح يضحكون أحياناً للنكت التي يقولونها كل يوم . . فعدوى ضحك الجمهور تنتقل إليهم . . ويشعـرون بالسعـادة اليومية لأن الجمهور سعيد . . والفرق بيني وبين ممثلة المسرح أنها هي لا تتغير ولكن الجمهور يتغير . . أما نحن فأنا لا أتغير ولا

أنت . . الممثلة واحدة والجمهور واحـد . . والنكت كما تـرى بايخة . وأنت معذور إذا تثاءبت أو إستغرقت في النوم . . منتهى القسوة !

وتبكي . .

ويكون البكاء هو الفرصـة السعيدة لأن يتكلم الـرجل . يقترب منها ويصالحها ويقول لها : حقك علي . . أنا غلطان . أنا كنت سرحان . . فعندي هموم في الشغـل أو في البيت . . أعذريني . .

والفتاة تعلم أن (الخناقات) هي الفرصة الوحيدة التي يتكلم فيها الرجل . وينفعل ويغلط ويعتذر . ويغلط ويعتذر وتبكي . ويصالحها ثم يعـدها بـأن يجعل لـه ألف أذن . لكي يسمعها ويتابعها ويستعير لسانها ويقول ويقول !

وبعد أن يصالحها يتحول إلى تمثال من الحجر لا يرى ولا يسمع ولا يريد أن يتكلم !

وبعض الرجال يتصورون أن الحب : ضعف . .

وأن الوقوع في الحب : وقوع . . سقوط . . مطب . . وأنه كرجل لا يريد أن يبدو ضعيفاً . منشغلاً بأي أحد . لأنه إذا إنشغل بالفتاة التي يحبها ، فـإن ذلك يجعلهـا تركبـه أو تتعالى عليه . . أو يعطيها أهمية أكبر ووزناً أثقل . . وتطلع فيهـا . . وتأخذ في نفسها قلماً . . وهو لا يحب أن يبدو هكذا صغيراً . . ضعيفاً . وأنها هي الأقوى . هي التي أخرجته عن الصمت وعن العزلة وعن الطابور . .

ويدور بينهما مثل هذا الحوار :

هي : لم يعد في حياتي شيء صغير أو كبير لا تعرفه . . ما الذي أحس به وأنا معك . . وأنا بعيدة عنك . . ماذا تقول إخوتي وجاراتي وصديقاتي . . وأنت تعرف أسماء الجميع . . وتعرف ماذا أكلت وماذا شربت . . ولماذا إخترت هذا الفستان وهذا الماكياج . . ولو كان في إستطاعتي أن أستخرج قلبي وأضعه أمامك لتراه هو أيضاً لفعلت دون تردد . . أنت لا تحب الشاي باللبن . . فأنا لم أعد أحب الشاي باللبن . . أنت لا تحب القلقاس لم أعد أذوقه . . أنت لا تحب الأرانب . . لم أعد أطيق النظر إليها . . هل ترى كيف أنك غيرت حياتي . . وتدخلت في ذوقي الخاص . . كل ذلك أحكيه لكي أقول لك : مدي سيطرتك على تفكيري وعلى ذوقي . . . وأنا العنيدة جداً التي يصفونها بالغرور والإعتداد بالنفس . . كل ذلك ذهب . . وليس هناك إلا أنت . . ذوقك هو ذوقي . . رغباتك أوامر . . وأنا مندهشة كيف حدث كل ذلك . . كيف تغيرت وتحولت لكي أكون مثلك . . صورة منك . . ظلاً لك . . مبسوط ؟

هو : كويس .

هي : كويس ؟ يعني إيه . . كل هذا الذي فعلت . . كل هذا الذي قلت وتقول كلمة واحدة : كويس . . لأ مش كويس . . إن أصبح هكذا بلا شخصية . . بلا إرادة . وأنت الشخصية وأنت الإرادة . . هل هذا كويس ؟ . . هذا شيء خطير في حياتي كلها . . أن تكون أنت حياتي . . ثم أنك لا تشعر بكل ذلك . . وتقول لي : كويس . . كويس أن تكون

أنت كل شيء ، وأن أكون أنا لا شيء . . كويس أن تبتلع حياتي . . أن تضمني إلى أملاكك . . أن أكون شيئاً في أصابعك في جيبك . . كويس أن تتحول واحدة مثقفة ذكية ترتيبها الأول جميلة أنيقة . . إلى عروس ورق . . إلى عروس فاقدة الوعي والإرادة . . وكل ما تفضلت به على هذه التي كانت إنساناً فأصبحت عدماً هو كلمة : كويس !

هو : ماذا أقول لك . . فعلاً شيء كويس جداً إنك تغيرت هكذا . . شيء جميل .

هي : إنني لم أتغير هو الحب الذي جعلني كذلك . . فهل تقول لي ماذا فعل بك أنت الحب . . هي تتغير مثلي . . هل تقلق . . هل تخاف . . هل تغار . . هل صورتي تغيب عن عينيك وصوتي عن أذنيك . . وخيالي عن أحلامك . . قل لي . . ماذا جرى ؟ قل لي هل أنا شيء في حياتك . . أو أن الحب لا علاقة له بالحياة ؟ . أو أن الحب يكون فقط عندما نلتقي . . أنا أفضل أهبهب . . وأنت ولا أنت هنا . . كلمني . . فهمني . . علمني . . رسيني . . أنا إيه بالنسبة لك . . أنت عارف كم تساوي أنت بالنسبة لي . . فكم أساوي أنا . .

هو : أنا قلت لك ألف مرة .

هي : كمان ألف مرة . . قل لي أنا إيه ؟

هو : حبيبتي .

هي : يا سلام . . وخارجة من تحت الضرس . . وهو الحب كلمة واحدة تقولها أنت . . ومليون مرة أقولها أنا . . لماذا

أنا التي تقول وأنت الذي لا تقول . . ما إسم هذه العلاقة ؟ قل لي يا أستاذ . . هل هذا هو الحب من طرف واحد . .

هـو : أنت تعـرفـين إني لا أعـرف كيف أعــبر . . أنت تعرفين . . ولكني بطبيعتي صامت . . قليل الكلام . . والناس يتضايقون مني . . وأنت تعرفين شعوري نحوك . . أنت متأكدة تماماً . . رغم إنك تطلبين مني أن أقول لك كلمة : أحبك . . عمال على بطال . .

هي : هل تعرف ماذا كانوا يقولون عني في البيت عندنا . . كانوا يسمونني «البجم» . . الحائط . . لأنني لا أنطق . . كان هذا حالي قبل أن أعرفك ولكن الآن . . الحائط أصبح له أذان وألف لسان . . أن الكلام يخرج مني كما يخرج الماء من النافورة . . كما ينزل المطر من السماء . . كالمطر يحيط بنا من كل مكان . ولا أعرف له مصدراً . . إنني أترك نفسي أقول . . وأستمع للذي أقوله كأن واحدة أخرى في أعماقي هي التي تقول . .

* * *

بعض الـرجال يـرى أن الكلام عن الحب يعـطي للمرأة شعوراً بأنها مساوية للرجل . . أو يجعل الرجل يشعر أنه مثل المـرأة . . أنه نـزل إلى مستواهـا . . فهي التي يجب أن تقول وتحكي . أما هو فلا يقول . .

ويدور مثل هذا الحوار :

هو : ما الذي تريدين أن تعرفيه أكثر مما قلت لك : لقد قلت لك كل شيء في حياتي . .

هي : أريد أن أعرف أكثر . . لا تظن إنني أحسب عليك أخطاءك . . أو إنني أقصد فقط ضعفك . . نحن لسنا في حالة حرب . . أنا لست عدواً لك . . وإنما أنت هام جداً في حياتي . وكل ما يتعلق بك هام جداً لأنه حياتي . مثلاً أفرض إنك تمشي حافياً في البيت . . أو إنك تأكل بيدك والأكل يقع على ملابسك . . وأنا لا أحب كل ذلك . . ولكني لن أقول لك : لا تفعل ذلك أو أن هذا لا يصح . . وإنما أنا أريد أن أعرف ماذا تفعل وماذا تقول : فقط . . أريد صورة حية لك . . هذا هو المطلوب . .

هو : طيب إيه رأيك . . إنني في البيت لا أستخدم الشوكة والسكين . . وأن أمي تغضب مني كثيراً . . وإنني أفعل ذلك أمام الضيوف . .

هي : وأنا أحب هذا . . أحب أسمع منك ذلك . هذا يدل على إنك إنسان عادي . . له نزوات . . لك عيوب وإنك تتمسك بها ولا يهمك كلام الناس . . وإنك كأي بني آدم لك أشياء صغيرة . . ولكنك تعطي لمن يسمعك صورة إنك عاقل جامد جاف . . لا تقبل الهزار وأن كل شيء في حياتك محسوب بالقالم والمسطرة . . وإن كلامي معك ليس إلا شئياً تافهاً . . وأنت زهقان وقرفان مني ، ولكن لا أعرف كيف أرضيك . . وأنا أحاول كثيراً جداً . ولكن لا أجد لهذه المحاولات أي أثر عندك . . هذا هو الذي يضايقني . .

ولكن الرجل لا يتنبه عادة إلى الحيل الذكية التي تلجأ إليها

المرأة لكي يعرفها . . فهي تحدثه عن رأي أخواتها فيها . . وعن رأي صديقاتها . .

ثم أنها تعرض عليه صوراً لها في البلاج . . ليراها في بعض ملابسها . . ثم تنتظر منه أن يقول رأيه في صديقاتها . . فيقول : هذه قصيرة . . وهذه سمينة . . وهذه طويلة أكثر من اللازم . . وهذه شعرها مجعد وهذه ساقها نحيفة . .

وكل ذلك يشير إلى أنها أجمل وأرشق . . هذا ما تريده منه . . ولكنه لا يلتفت إلى هذه الحيل . . وكأنه لا رأى الصور . . ولا وجد شيئاً يقوله

وقد تلجأ المرأة إلى أن تعرض عليه ما تقوله صديقاتها في خطابات بعثن بها . . وفي الخطابات وصف لجمالها ورشاقتها . . والتغيرات التي طرأت عليها . . وأنها لفتت كل العيون والآذان ــ أي أنها تريد أن تقول له عن هذا الأثر الهائل الذي تركه في حياتها . . بما يؤكد حبها العميق له . فماذا يقول هو ؟

فهل تشك المرأة في صدق مشاعره . هل هو لا يشعر بشيء ولذلك لا ينطق . هل الرجال كلهم هكذا . . أو أن حبيبها حالة خاصة . . وتذهب تسأل هذه وتلك . . وتجمع المعلومات . . أنه مختلف . ولكنه أحياناً يبدو أنه يحبها وأنه يغار عليها . . وترى كل ذلك في عينيه . . ولكنها تشعر بالإشفاق عليه . . فهو لا يختلف كثيراً عن قطتها التي ترى في عينيها الحب . . ولكن القطة لا تعرف كيف تعبر عن ذلك . .

والرجال يضيقون بالمرأة لأنها تطلب إليهم دائماً أن يؤكدوا

حبهم لها . . بل تطلب في أوقات غريبة أن يقول أنه يحبها . . كان يكون في حالة شجار . فجأة تقول له : طيب قل إنك تحبني !

ويقول لها : ولكنك تضغطين بأصابعك حول رقبتي . .

أو يتشاجران على باب السينما . . فجأة وأمام الناس تقول : هل لا تزال تحبني ؟

ــ ليس أمام الناس !

ــ نحن لا نسرق .

ــ (هامساً) أحبك .

ــ خائف من الناس . . أنا لا أخاف ولا يهمني الناس وأستطيع أن أنادي كل هؤلاء الناس وأقول لهم بمنتهى الوضوح : هذا الرجل أحبه . ثم لا ندخل السينما . . ويقولون : مجنونة . . وأنا فعلاً مجنونة بحبك . . ومجنونة لأنني أحببت واحداً لا يحبني !

وفي بعض الأحيان تتأكد من أنه لا يتابع كل ما تقول :

هي : ولكن هذا الفستان أنا أرتديته يوم ذهبت إلى نادي الجزيرة . وعجبك جداً . . كيف نسيت ذلك . .

هو : أن كل فستان ترتدينه أراه جديداً . .

هي : نفس العبارة التي قلتها لأختي عندما رأيتها معي من يومين . .

هو : أنا قلت هذا ؟

هي : نعم يا أستاذ . . حاول أن تخترع عبارة أخرى . .

أنت لا تدري ما تقول يا سعادة البيه ؟

هو : كل شيىء في الدنيا يتكرر . . فليس معقولاً ألا تتكرر الكلمات ونحن نقولها . .

هي : ولكن يجب أن تجد كلاماً خاصاً للبنت التي تحبها . . لأنها شيىء خاص يستحق منك إهتماماً خاصاً .

هـو : أنت شغلتني عن أن أبدي ملحـوظة هـامة . . أن شعرك الآن وقد طال صار أجمل مما كان قبل ذلك . . ثم أنك غيرت لونـه . . وأنا أحب شعـرك لا يغطي جبهتـك . . لأن جبهتك جميلة . . والشعر عندما يتهدل عليها يخفيها . .

هي : (تضحك) ألم أقل لك . . أنت تنسى . . أنت قلت هذا الكلام في الأسبوع الماضي . . وأكدت لك إنني لم أغير لون شعري ولا غيرت التسريحة . . ثم إنني قصرت شعري . . أنت يا سيدي لا تستمع إلى ما أقول !

* * *

أن الرجل يحب أن يقوم بدور الملك شهريار . . هو ساكت وشهرزاد تحكي كل ليلة حكاية . . هي تريد أن تحتفظ به ولكنه لا يفكر في شيىء من ذلك . . الخوف يدفعها إلى الشك والشك يدفعها إلى أن تتأكد كل يوم أن كان يحبها . . وإذا كان يحبها فلماذا لا يعلن ذلك . . وإذا أعلن ذلك ، فلماذا لا يذهب إلى أبعد من الإعلان عن الحب إلى تحويله إلى حقيقة عملية يحترمها الجميع . . إلى زواج . . ثم أن الزواج نفسه ليس النهاية ، وإنما هو تتويج لمرحلة ، وبعدها تتوالى مراحل أخرى كل واحدة لها إسم ولها شكل ولها لغة . . فالحب فعل وليس كلاماً . وليس

فعلاً واحداً ، وإنما أفعال كثيرة . وهذه الأفعال لا بد أن يسبقها الكلام ويجيء بعدها أيضاً . .

أما ما هذا الذي يحدث دائماً : فهو أن الرجل يبني الأسوار ، والمرأة تبني الجسور . . هو يريد أن يجعل نفسه قلعة لها جدران عالية . . وأمام الجدران قنوات من المياه وفي المياه تماسيح . . لا يقتحمها أحد . .

أما هي فمثل الجيوش القديمة . . تبنى الجسور . . عبر القنوات . . وتقيم السلالم فوق الجدران لكي تدخل . . وتتسلل . . وتقتحم . . مع أنها في حالة حب . . وليست في حالة حرب . .

ولكن لا يزال طريق المرأة إلى الحب نوعاً من الحرب !

تحرق البيت لكي ترى دبوساً !

هل هي حالة حرب ؟ هل هي حالة سلام ؟

هل هي إستعدادات مستمرة لأن يكون شيء ما لا هو حرب ولا هو سلم . . في الخناقات بين الأزواج يكتشف كل واحد منهم الآخر تماماً كما تهز الأناء فتظهر الرواسب . . أو كما يحدث أثناء الحرب ، فالقنابل التي تنفجر تضيء قبل إنفجارها فتنكشف الأشياء لحظات قبل أن تتحطم . . ولكنه ثمن فادح جداً أن يكون إنفجار القنابل هو الوسيلة الوحيدة لأن يرى الناس بعضهم بعضاً . . ولكن هذا ما يحدث بين الأزواج في لحظات التوتر الشديد . .

في إحدى قصص سومرست موم يقول الكاتب الإنجليزي العظيم أن جماعة من اللصوص إختبأوا في أحد البيوت . . وكان الجو بارداً . . وكان على واحد أن يخلع بعض ملابسه ويعطيها للأصغر سناً . . ولكن الكبير بدأ يرتجف من البرد . . ولم يشأ الصغير أن يعيد إليه ملابسه . . وتشاجرا وتعالت الأصوات ــ ولكن يا روحي ما بعدك روح !

ولم يجد الكبير الذي شعر بالبرد الشديد إلا أن يشعل أخشاب البيت . . وإهتدى إلى أن اللوحات الفنية النادرة المرسومة بالزيت هي أسرع الأشياء إشتعالاً ـ ومد يده إلى واحدة منها . . فصرخ الشاب قائلاً : يا مجنون . . لقد جئنا لسرقة هذه اللوحة . . أن ثمنها نصف مليون جنيه على الأقل . . أنها مستقبلنا جميعاً !

ولكن الرجل الكبير أصر على إحراقها . . فما كان من الشاب إلا أن خلع الجاكتة وأعطاها للرجل الكبير الذي يرتجف من البرد . . وبدأ الشاب يرتجف من البرد هو الآخر . .

وكانت الغرفة خالية تماماً . . إلا من هذه اللوحة . . أما أرضية الغرفة فمن البلاط . . وأما جدرانها فمن الطوب . . فلم يكن أمامهما إلا خلع الباب وهو ثقيل جداً وإشعال النار فيه وفي نفس الوقت يحاولان معاً ألا تشتعل النار فتضيء الغرفة فيراهم الناس في الشارع . . فكانا يتناوبان التبول على النار حتى لا تفضحهما . .

ولكن فجأة إشتعل الباب . . فهو أيضاً مغطى بطبقة من الزيت . . وأمسكت النار في الضرفة الأخرى للباب . . وقد أدى الدخان المتصاعد إلى إختناق اللصين . . وسقوطهما على الأرض . . ليدخل البوليس وينقذ اللوحة في آخر لحظة ـ أما اللصان فقد ماتا !

ففي الحياة الزوجية يحاول كل من الزوجين أن يرى الآخر . . أو يكشفه أو يفضحه أو يضبطه متلبساً ، ولا بد من إشعال النار لكي يرى أحدهما الآخر على ضوئها . . ويكون

الثمن فادحاً . ولكن حب الإستطلاع عند المرأة أقوى . . وهي من أجل أن تعرف بنفسها . . بعينيها وبأذنيها على إستعداد لأن تخسر قضيتها . . وتحرق البيت كله من أجل أن ترى دبوساً توهمت أنه هدية من إمرأة أخرى ؟!

ولذلك فهي تجعل المشاجرة تسخن وتشتغل . . ويصبح الدخان خانقاً ـ لا يهم ـ فإنها تريد أن تعرف . .

مثل هذا الحوار يدور بين المحبين أو بين الأزواج :

هي : طبعاً قابلتها . .

هو : إنها بنت خالتي . .

هي : لقد كانت بنت خالتك طول عمرها . . واشمعني هذه الأيام . . ماذا حدث لكي تلتقي بها في أسبوع واحد ثلاث مرات . . ما هو الحديث المستعجل جداً والضروري جداً لكي تقف معها أمام الأسانسير . . ثم أمام السيارة . . ثم تفتح لها الباب لتجلس إلى جوارك وتكملان الحديث السعيد . . طبعاً لا شيء إلا أنك تشكو لها من حياتك الزوجية وتقول لها طبعاً : لو كنت تزوجتك أنت أليس أفضل . . وطبعاً هي التي ستقول لك : أنها ضحكت عليك . . أي أنا ضحكت عليك وأكلت بعقلك حلاوة . . وطبعاً هي سعيدة جداً لتعاستك الزوجية . . ولا بد أنها قد زودتك ببعض النصائح الغالية . . ومن أوليات هذه النصائح أن تجيء إلى البيت ضارباً بوزاً داخلاً وخارجاً ؟! أريد أن أعرف آخرتها . . هل أترك البيت ؟ أنا مستعدة ؟ هل أترك لك الأولاد أنا مستعدة . . أي شيء يريحك . .

هو : إيه ده . . إيه ده ما هذا الذي قلت وحكيت

ورويت . . وهل كنت معنا ؟ هل تزعمين إنك وضعت جهاز تسجيل في السيارة . . أو جهاز تسجيل في ملابسي أو ملابسها وإستمعت إلى كل ما قالت وقلت . . أنها إبنة خالتي وأصغر مني بعشرين سنة . كأنها إبنتي . . وفعلاً وهي صغيرة كنت أضعها على كتفي وعلى رأسي . . فلا علاقة لها بما نحن فيه من خلافات . . ثم كيف تتصورين أن أسألها عن خالتي وتقول لي أنها مريضة بالمرض الملعون ولا أبدي إهتماماً . . هل نسيت إنني طبيب . . هل نسيت أنها في مقام والدتي . . وأنها تولت تربيتي بعد وفاة أمي .

هي : وهل مرض خالتك بالسرطان يجعلك تضحك بهذه السعادة ؟

هو : فعلاً ضحكت عندما قال لهم الطبيب أنها مصابة بهذا المرض فما كان من بنت خالتي إلا أن قدمت لوالدتها عصير الليمون والأسبرين وتقول أنها إستراحت جداً . . وشفيت تماماً . . أليس هذا شيئاً يبعث على الضحك ! ثم تعال هنا من الذي قال لك كل هذه المعلومات الدقيقة ؟

هي : وهل أنا عبيطة لكي أقول لك من هو أو من هي . . لا تحاول أن تلعب بذيلك فأنا أطلقت وراءك جواسيسي في كل مكان . . عندي أناس يحبونني ويتطوعون بتقديم هذه المعلومات . . وهل تظن إنني نائمة على وداني . . لا يا دكتور . . أنا لحمي مر . . شديد المرارة !

هو : لحمك ؟ أنت عندك لحم ؟

هي : نعم ! نعم ! لـو أردت أن أكون تخينـة مثـل بنت خالتك لفعلت ذلك في أسبوع واحد . . ولكن لا أريد أن أكون بهذا المنظر الفظيع . . وهل لأنها تخينة ملظلظة أعجبتك . . ألم تقل في أول حياتنـا الزوجيـة أن الوزن المثـالي هو وزني . . . والطول المثالي . . هـو طولي والآن غـيرت رأيك . . أصبحت كخة . . والله يا سيدي أن لم يعجبك هـذا فلا أزال أعجب أناساً كثيرين . . وعلى إستعداد لأن يخطفوني منك خطفاً . . على الأقل سوف يقدرونني أكثر !

هو : وبعدين ؟

هي : ولا قبلين . . نطلق !

هو : يا مجنونة !

هي : (تبكي) ماليش قعاد في البيت ده

هو : يا مجنونة . . يا عبيطة . .

ولا يحدث طلاق وإنما مصالحة وعودة العلاقات التي كادت تنقطع لأن الزوجة أشعلت النار لـترى زوجها أو حبيبهـا على ضوئها . . وقصدها أن تكشفـه . . أن تفضحه . . أن تعـرفه أكثر . . أن تكسر أنفه . . أو تكسر غروره . . ثم تبكي على أن شيئاً إنكسر بينهما . . وفي كل مرة ينكسر شيء . . ثم ينكسر شيء آخر . . وفي النهاية تصبح العلاقة بينهما أنقاضاً . . وفي هذه الحالـة لا تنفع المنـاقشة . . ولا تجـدي الخناقـة . . وإذا أشتعلت النـيران بينهما بعـد ذلك فعـلى إثنـين يتفـرجـان عـلى التليفزيون ولا يدور بينهما كلام من سنوات طويلة !

* * *

سؤال : هل من المعقول أن المرأة تحب أن ترى زوجها ضعيفاً . . وترى أن هذا الضعف يثير شفقتها . . ويجعل لها دوراً هاماً في حياته . . دور الأم . . أو الممرضة الأقوى التي تعطي وتتحكم ؟

هل المرأة تفضل الرجل القوي الذي ليس به نقطة ضعف . . أي الرجل الذي ليس في حاجة إليها . . أي أن وجودها زي عدمه . . فلا دور لها في حياته . . ولا تستطيع أن تضيف شيئاً أو تعطيه شيئاً . وأنه في حالة إكتفاء ذاتي . . وأنه يستطيع أن يعيش من غيرها . . وأنها مثل أية واحدة أخرى . . وأنها جاءت أو خرجت أو عاشت أو ماتت كأنها لا شيء ؟!

عندما تطلب المرأة إلى الرجل أن يتحدث عن نفسه . . عن أحواله . . عن بابا وماما وجميع الذين إشتركوا في إيجاده في هذه الدنيا فلأنها تريد أن تعرفه تماماً . . لأنها تريده أيضاً أن يعرفها تماماً . . أن يتعرى أمامها وتتعرى هي أمامه . . فلا يكون بينهما شيء واحد مجهول . . والمرأة لا تنسى كل الذي قاله الرجل ، وإن كان الرجل ينسى . . والمرأة تسجل عليه كل الذي قال . . وإذا في يوم من الأيام قال لها كلمة مجاملة فسوف تبقى هذه الكلمة منقوشة في دماغها وسوف تخرجها عند اللزوم . . والرجل يقول ويقول . . والكلام يمحو بعضه بعضاً . . ولكن المرأة تجتر هذا الكلام وترتبه ترتيباً دقيقاً . . والرجل يندهش كيف أنها تسترد وتستعيد هذا الكلام بمنتهى الدقة في أي وقت . . أنها لا تنسى !

ومعلوماتها عن الرجل هي سلاحها ضد الرجل . . وهي

بارعة في إستخدام هذا السلاح . . وهذا السلاح تخرجه من حقيبتها وهي تأكل ومن تحت المخدة وهي إلى جواره . . وكل شيء في البيت وفي الشارع وفي الصحف يذكرها بما قاله لها الزوج . .

مثلاً يكون الإثنان في السينما يتفرجان على فيلم ليلى علوي ومحمود عبد العزيز وأحمد زكي وسمير غانم ووحيد سيف . الفيلم مضحك . فتقترب هي من أذنه وتقول له : تماماً كما حدث لك عندما إضطررت وأنت طفل أن تبيت عند عمتك . . (وتضحك) .

هو : لا مش فاكر . .

هي : أنت نسيت وإلا إيه ؟!

ويكون هو قد روى لها قصة في أيام الخطبة من عشر سنوات أنه تشعبط في مواسير المياه مثل سمير غانم على كتفي وحيد سيف من أجل أن يسرق كراسة المحبوبة ليلى علوي لينزع منها جميع خطاباته الغرامية حتى لا تعرضها على محمود عبد العزيز الذي هو أعدى أعدائه . .

والمرأة تفضل الرجل القوى . . القادر على حمايتها . . الذي تتطلع إليه البنات الأخريات ولكن هي التي تفوز به . . الرجل الذي يشخط وينطر . الذي هو مصدر القوة والحماية . والذي له رأي وله قرار وتتمسك به . . ولا تحب الرجل الشخشيخة ــ أي الذي في يدها مثل حقيبتها . . تعال هنا . . يجيء . . إذهب هناك . . يذهب . . لا رأي له ولا موقف . . هذا الرجل يريح المرأة ولكنها لا تحترمه . . أنها تكره ضعف

الـرجل . . وإن كـانت تحب ضعفها هي أمـامه . . أنها تحب الرجل الذي يجعلها ضعيفـة . . ويجعلها تحس أنها في حـاجة إليه . . وأنها من غيره ولا حاجة . .

وعندما يضعف الرجل القوي تكون الـزوجة سعيـدة . . لأنه قد ضعف . . قد إنهد حيله . . لأن أنفه قـد إنكسر . . ولأنه محتاج إليها . . ويسعدها ذلك . .

ويكـون مثلاً هذا الحوار ؛

هي : تعرف أنا كنت أتمنى أن يكون لنا أولاد . . ولكن إرادة ربنا فوق كل شيء . . الحمد للّه على الصحة . . وعلى أنك لا تزال إلى جواري . . الحمد للّه ربنا عاوز كده . .

هو : يا شيخة ! أولاد إيه وزفت إيه . . ألا ترين أمك . . أنها تعبـانة مـع أولادها . . ورغم أن الأولاد كـبروا وعنـدهم زوجـات وأولاد . . فأنها تحمـل همومهم جميعـاً كما لـو كـانـوا عيالاً . . فهي لا تتصور مثلاً أن أية زوجة سوف تهتم بأولادها كما كانت هي تفعل . . وتتصور أنها أكثر عطفاً على أحفادها من أمهاتهم . . هي التي تتصور . . مـع أن كل أم تحب أولادهـا وترعاهم على طريقتها . . ولا خلاف بين أمك وبين أية أم . . فالأم التي تترك إبنها يبكي حتى ينفلق ليست جامدة . . وإنما هي ترى أن طفلها يجب أن يبكي . . والبكاء فيه تنشيط للتنفس وفي نفس الوقت فيه تقوية لحباله الصوتية . . ثم أن الطفل يجب أن يتعلم أنه ليس بالبكاء يحمل على ما يريد . . أنه يحصل عـلى الذي يريد في الوقت الذي تراه الأم مناسباً . . فهذه تربية علمية صحيحة !

هي : عارف لو كان عندي ولد منك كنت دوختك السبع دوخات . . كنت تركتك بعد الولد الأول . . وجعلتك تلف حول نفسك من أجل نظرة واحدة . . وكنت علمتك معنى الأرق والقلق والعذاب والندم ولكن مع الأسف لم تعطني هذه الفرصة لكي أجد فيك نقطة ضعف . . يا خسارة أنت من غير نقط ضعف !

هو : الحمد للّه .

هي : فعلاً أنت يجب أن تشكر بنا . . لأنه أنقذك من أنيابي ومخالبي .

هو : وهل كنت تريدين أولاداً فقط لتعذيبي وبهدلتي وراءك ؟

هي : هذه هي الحقيقة ! هذا ما كنت أريد . . فأنا عندي أولادي من زوجي الأول والحمد للّه . . ولكن أريد أن أشوف فيك يوماً !

هو : يا ساتر يا رب . . أنت بهذا السوء . . أنا لا أريد أن مضاعفة مشاكلك وأنت تريدين أن تعاقبيني على هذه النية الطيبة . . أعوذ باللّه . . وساكتة على نفسك وكاتمة غيظك طول الوقت . . مع إنك أنت التي قلت : أنت حر يا حبيبي . . عاوز أولاد أنا جاهزة . . مش عاوز أولاد أنا جاهزة . . مش عاوز . . أولادي هم أولادك كل هذا كذب . . ؟ كل هذا غش . . وأنت تخفين السكين وراء ظهرك . . إذن فانت كذابة عندما ذهبت إلى الطبيب وقلت له أنك أنت التي لا تريدين الأطفال . . كل ذلك لكي أذهب معك وتجري لي التحاليل اللازمة لتعرفي أن كان

العيب مني أو منــك . . ولما تــأكــدت أن العيب مني إزداد غيظك . . لأنه لم يعد لديك أي أمل في تعذيبي وتشريدي . . أعوذ بالله . .

ولم يكن بينهما طلاق . . فهو أيضاً قد كذب عليها . . فهو قادر على الإنجاب ولكنه لم يكن يتصور أن تطول بينهما الحياة الزوجية . . وإنما كان يتصور أن زواجهما قصير العمر وأنه لا يريد أن يكون له أولاد منها . . ولذلك قدم لها تحاليل ليست له . . هذه التحاليل تؤكـد عجزه عن الإنجـاب . . وقال لـه الطبيب أمامها : يا سيدي لم تبق النساء فيك شيئاً . . لقد أكلن جميع أولادك . . وهذه هي نهاية كل الذئاب !

* * *

هناك نقط ضعف أخرى في الرجال تضيق بها النساء .

مثلاً : الرجل الذي يقارن دائماً بين زوجته وأمه . . طبيخ أمه . . وهدوء أمه . . حلاوة أمه . . دعوات أمه . . أحضان أمه . . عطف أمه الذي بلا ثمن وبلا حدود . .

أي أنه يريد أن يظل في حضن أمه . . وأن تستأنف زوجته دور الأم . . أي أن يظل طفلاً لزوجته . . لا بأس . . ولكن الزوجة لا تريد أن تكون زوجة لطفل . . وأن تقوم هي بدور حماتها . . هي تريد أن تكون زوجة لرجل . . هذا الرجل يرى أن زوجته مرحلة متطورة لأمه . . بل إنها أفضل . . وفي نفس الوقت لا تريده أن يقارن بينها وبين أمه . . فهذه المقارنة معناها أنها أقل من الأم . . وأنها لم تتغلب على دور الأم في حياته . . وأن المسافة التي بينها وبينه لا تزال أمه ــ حماتها ــ تقبع فيها ومن

الممكن أن تطل برأسها وتفتح ذراعيها وتستعيد ولـدها في أي وقت . . فهي عدو للزوجة وهي في حالة تحفز مستمر . . وفي حالة إنتظار لفشل هذه العلاقة . .

بصراحة المرأة لا تحب الرجل الذي هو «ابن أمه» . . والأم لا تحب الولد الذي هو ابن زوجته أو خادم لها . . أو ظل لها . .

مصيبة كبرى لو إضطرت الزوجة أن تعيش مع حماتهـا ــ وخاصة إذا كانت من هذا الطراز . فيكون مثل هذا الحوار :

هي : تعرف تقول لي : ما معنى أن والدتـك لا يحلو لها الجلوس وقراء الفنجان إلا أمام باب غرفتنا . .

هو : وهل أستطيع أن أقول لها أجلسي في مكان آخر ؟

هي : نعم تستـطيـع . . عنـدهـا غـرفتهـا وفي غـرفتهـا بلكونة . .

هو : وماذا يضايقك في جلوسهـا ؟ لا تنسى إنك سـوف تكونين أماً يوماً من الأيام . . سوف تكونين حماه .

هي : ولن أكون بهذه السخافة والرذالة !

هـو : عيب أن تقـولي عن أمي أنها سخيفــة ورذيلة . . عيب . .

هي : كيف تسمح لواحدة أن تضع أذنها على الباب لتسمع ما نقول وما لا نقول . . كيف تفسر أنها تقول لنا كل يوم . . هه . . لقد سمعتكما تتكلمان حتى ساعة متأخرة . . فيه حاجة يا أولاد ؟ آه يا أختي فيه حاجة وحاجة ! رجل وإمرأتـه . . هل تريدين تفصيلات أكثر . . لقـد إنتظرنـاك حتى تتركي المكـان لنكون على حريتنا . . أليس هذا شيئاً مخجلاً ؟! ألا تشعر أنت

بـالكسـوف ؟! أنـا والله ميتـة في جلـدي . . وقـرفـانـة وعنـدي إحساس أن في الحائط ثقباً كبيراً وأن أمك تتفرج علينا . .

إذا لم تقل لوالدتك فسوف أقول لها . . وإذا منعتني فسوف أترك البيت لرجل عاجز عن أن يقول لأمه : عيب يا وليـه يا عجوزة . . عيب !

هو : عيب . . أن أمي تريد أن تطمئن على سعادتي .

هي : على سعادتك ؟ ولماذا لا تطلب منها أن تجيء وتنام معنـا . . أو تحت السرير . . أو السريـر كبير يتسـع لنـا نحن الثـلاثـة . . والنبي أنت مش مكســوف من نفسـك . . مش مكسوف للست والدتك !

هو : ألم يحدث أننا ضبطنا أمك تقف أمام باب غرفتنا ؟ نسيت ؟!

هي : تقف أمام باب الغرفة . . إن أمي كان قد وقع منها فص من الماس . . وتريد أن تفتش عنه قبل أن تجيء الخادمة في الصباح . . ثم أمي سمعها ثقيـل وأنت تعرف ذلـك . . هل عرفـت أن أمي لم تكـن تتصنت علينـا . . هل هـذا يكفي لكـي تقول لأمك ألا تفعل ذلك فهمت . . هذا هو السبب !

هو : سأقول لها يوم الجمعة .

هي : ولماذا يوم الجمعة ؟

هو : أنت تعرفين أن أمي مزاجها في الجلوس أمام غرفتنا ليلة الجمعة ؟!

ويضحكان . . ويتكرر هذا الخلاف وتمـوت الأم وتفاجـأ

الزوجة بأن زوجها يضع تربيزة ومقعداً أمـام باب الغـرفة . . وتسأله : ما معنى هذا ؟

هو : إنني أريد أن أتذكر أمي . .(ويضحكان) .

* * *

وعنـد الأغـريـق بطـل اسمـه « أخيـل » هـذا البطـل جسمـه لا تنفذ منه السهام . . فعندمـا ولد غمسته أمه في أحـد الأنهار المقدسة . . وكل مكان لمسه الماء صار منيعاً . . ولكن لأن الأم أمسكت طفلها من كعب قدمه . . فالماء لم يصل إلى الكعب . . وهذه هي نقطة الضعف الوحيدة في كل جسمه . . فـإذا أراد أحد قتله فلا بد أن يصيبه في كعبه . .

ولذلك فنقـطة الضعف عند أي إنسـان إسمها : «كعب أخيل» .

والمرأة الذكية هي التي تعرف نقطة الضعف فتضغط عليها من حين إلى حين . ولكن لا توسعها ولا تطلق عليها السهام . . سهامها . . أو سهام الآخرين . فالسعداء فقط هم الذين لهم نقطة ضعف واحدة . . ولكن ما أكثر نقط الضعف عند الجميع !

الفهـــرس

كتب للمؤلف

(أ) ترجمة ذاتية :

١ ـ فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ ـ عاشوا فى حياتى
٣ ـ إلا قليلا
٤ ـ طلع البدر علينا
٥ ـ البقية فى حياتى
٦ ـ نحن أولاد الغجر
٧ ـ من نفسى
٨ ـ حتى أنت يا أنا
٩ ـ أضواء وضوضاء
١٠ ـ كل شىء نسبى

(ب) دراسات سياسية :

١ ـ الحائط والدموع
٢ ـ وجع فى قلب اسرائيل
٣ ـ الصابرا (الجيل الجديد فى اسرائيل)
٤ ـ عبد الناصر ـ المفترى عليه والمفترى علينا
٥ ـ فى السياسة (٣ أجزاء)
٦ ـ الدين والديناميت
٧ ـ لا حرب فى أكتوبر ولا سلام
٨ ـ السيدة الأولى
٩ ـ التاريخ أنياب وأظافر
١٠ ـ الخالدون مائة ـ اعظمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)
١١ ـ لعنة الفراعنة
١٢ ـ على رقاب العباد
١٣ ـ ديانات أخرى
١٤ ـ وكانت الصحة هى الثمن
١٥ ـ الغرباء
١٦ ـ الخبز والقبلات

(جـ) قصص :

١ ـ عزيزى فلان
٢ ـ هى وغيرها
٣ ـ بقايا كل شىء
٤ ـ يا من كنت حبيبى
٥ ـ قلوب صغيرة
٦ ـ شارع التنهدات
٧ ـ فوق الركبة
٨ ـ هذه الصغيرة (وقصص أخرى)
٩ ـ عريس فاطمة
١٠ ـ يوم بيوم
١١ ـ إنها الاشياء الصغيرة

(د) نقد أدبى :

١ ـ يسقط الحائط الرابع

٢ ـ وداعا أيها الملل
٣ ـ كرسى على الشمال
٤ ـ ساعات بلا عقارب
٥ ـ مع الآخرين
٦ ـ شيء من الفكر
٧ ـ لو كنت أيوب
٨ ـ يعيش .. يعيش ..
٩ ـ الوجودية
١٠ ـ عذاب كل يوم
١١ ـ طريق العذاب
١٢ ـ وحدى .. ومع الآخرين
١٣ ـ مالا تعلمون
١٤ ـ لحظات مسروقة
١٥ ـ كتاب عن كتب
١٦ ـ أنتم الناس ايها الشعراء
١٧ ـ أيها الموت .. لحظة من فضلك
١٨ ـ أوراق على شجر
١٩ ـ فى تلك السنة
٢٠ ـ دراسات فى الأدب الامريكى
٢١ ـ دراسات فى الأدب الالمانى
٢٢ ـ دراسات فى الأدب الايطالى
٢٣ ـ فلاسفة وجوديون
٢٤ ـ فلاسفة العدم

(هـ) رحلات :

١ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٢ ـ بلاد الله خلق الله
٣ ـ غريب فى بلاد غريبة
٤ ـ اليمن ذلك المجهول
٥ ـ أنت فى اليابان وبلاد أخرى
٦ ـ اطيب تحياتى من موسكو
٧ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية :

١ ـ مدرسة الحب
٢ ـ حلمك يا شيخ علام
٣ ـ مين قتل مين
٤ ـ جمعية كل واشكر
٥ ـ الأحياء المجاورة
٦ ـ سلطان زمانه
٧ ـ حقنة بنج
٨ ـ العبقرى
٩ ـ الكلام لك يا جارة

(ز) مسرحيات مترجمة :

* للأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات :

١ ـ رومولوس العظيم
٢ ـ زيارة السيدة العجوز
٣ ـ زواج السيد مسيسى
٤ ـ الشهاب
٥ ـ هى وعشاقها

* للأديب السويسرى ماكس فريش :

١ ـ أمير الأراضى البور

٢ ـ مشعلو النيران

* للأديب الفرنسى جان جيرودو :

١ ـ من أجل سواد عينيها

* للأديب الامريكى آرثر ميللر :

١ ـ بعد السقوط

* للأديب الامريكى تنسى وليامز :

١ ـ فوق الكهف

* للأديب الامريكى يوجين أونيل :

١ ـ الامبراطور جونس

* للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:

١ ـ تعب كلها الحياة

* للأديب الفرنسى ادامون :

١ ـ الباب والشباك

* للأديب الاسبانى أزابال

١ ـ ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية :

١ ـ الحنان أقوى

٢ ـ من أول نظرة

٣ ـ طريق العذاب

٤ ـ الوان من الحب

٥ ـ شباب .. شباب

٦ ـ مذكرات شاب غاضب

٧ ـ مذكرات شابة غاضبة

٨ ـ جسمك لا يكذب

٩ ـ اثنين .. اثنين

١٠ ـ الذين هاجروا

١١ ـ غرباء فى كل عصر

١٢ ـ أظافرها الطويلة

١٣ ـ هموم هذا الزمان

١٤ ـ الحب الذى بيننا

١٥ ـ عذاب كل يوم

١٦ ـ قل لى يا أستاذ

(ط) دراسات علمية :

١ ـ الذين هبطوا من السماء

٢ ـ الذين عادوا إلى السماء

٣ ـ القوى الخفية

٤ ـ أرواح وأشباح

٥ ـ لعنة الفراعنة